ياقوتة

فيليب لازاروس

مقدمة

ياقوته

ليت سيفا لم يصنع ، و ليت رمحا لم يقطع ، و ليت جرسا لم يقرع و ليت بوقا لم يسمع ، و ليت قلبا لم يفزع ، وليت بطنا لخبيث لم تدفع ، وليت أرضا لطيب لم تبلع .... و ليت حبا لم يمنع .

على إكسير عذب من الشخصيات الطيبة ، و على معزوفة من أنغام السبايا و الإماء اللاتي ولدنا كأغراض لغيرهن ، زغاريد من عالم ساحق ، رقصات من أرض كانت يوما ما منارة لسفن الكون ، إمبراطوريات فنت و أعيد إحياؤها ، شخوص طمرت في طي النسيان ، لكن فجأة تعود لذاكرة جامدة ساكنة من الخيال ، مماليك صارعت نفسها و صارعت الحياة و الزمن الراكد و الزمن المرير ، نسوة عشقن ، عشقن طرب الآثام ، و متعا في صحراء ليس فيها حياة سوى موت في كل مكان و كل حين ، كأنك حين ترى ، ترى شخوصا في مسرحية ، مسرحية عاد التاريخ إليها بكل حب و دون تدمير لأمم و شخوص ، عاد إليها التاريخ بكل حب ، وبكل احترام ، تجد الكل مع الكل ، بعض من الخطايا عن

جهل و الكثير و الكثير من الود ، و قلوب لا تحمل شجوى و لا تأسرها غصّة ، لا أدري ، لكنه عالم ليس خلاقا إنما بسيط ، بساطة الصحراء ، و بساطة الحياة .

انطلاقا من حب لم يوضع في ميزان عادل ، ومن نفس مرهقة من قتر الحياة ، إلى عالم من الملوك و التيجان و الصوامع المرصعة بالحلي واللازورد و الزبردج ، و رقصات الجواري و أنغامها ، و باروكة أو عمامة من الحرير ، و أريج حدائق السلاطين و صهوات خيول الأميرات ، و رائحة طعم الموت أو الغدر السارحة بين الأفنية و البلاط و دسائس الحساد التي لا تخلوا من بعض الطرف ، كأنها قهوة عربية أصيلة مرّة بسكر هندي ، أو علقم ممزوج بعسل بري اندنوسي حلو في مرارته ، و من خلال غيرة و حب ، له طعم هذه المرة ، ليس طعم المساواة في الميزان ، إنما حب بعيد أو نكاد نقول أنه ولد ميتا ، أو لا فرص له بالحياة ، لكن الخيال يوفيه حقه و يعطيه إكسير الحياة ، و حضنا يقيه من برد الموت ، و يدا تسحبه من براثن النسيان ، ليبقى قويا ، ليبقى صلبا مفعما بالحياة .

أساطير متزاوجة ، و تاريخ يعبث بعضه مع بعض ، فحينما يغيب الموت تسرح الحياة ، و حينما يغيب الرعب يحل السلام ، حينما ننظر للماضي كلنا نقول أنه ليت أمورا لم تحصل ، ليتنا نغير ، نلجأ حينها إلى كاتب المسرحية ، إلى القدر لأنه أعظم كاتب للقصص و التاريخ ، لأنه العالم الأكبر بشؤون الغابرين و القادمين ، لكن في النهاية نرضخ بالواقع المرير ، كأننا نلجأ نحو سراب من ظمأ ، لكن في النهاية دائما نحن متأخرين .

فالموت لا تحابي روحا ، و لا تضحك الحياة دائما ، لكن تبقى الآثار التي لا يمكن طمرها ، في هذه القصة نسرح بكم في عالم الفانين ، السارين منهم دروب الهوى و منهم بعض الشخوص المكابرين ، على أوتار صهيل الخيول ، و رائحة العرق في الصحراء ، ليست لطيفة أليس كذلك ؟ ، قوافل من لحم بشري ، و مآدب سلاطين مخملبين ، لبؤساء طمّاعين ، طرق للسير وعرة و هنجهية و بطر و غمط ، و مذابح بشرية بطعم الحياة الجامحة ، لا أدري كيف ، لكنهم قوم معقدين ، كأنها تعاويذ فارسية أو عربية أو تركية ، ربما ، و مشاهد سريالية يقودها ملوك ، لن يكون مصيرهم سوى اللعنات الشيطانية في أعماق الجحيم .

بين سطور لطيفة ، و كلمات ظريفة عذبة ، و أحداث ستتسابق في عقلك تسابق الغزلان العربية ، و شخوص كأنها غجرية ، و من قلب الصحراء تنبت شجرة هذه القصة و تخرج أفانين من قصص من زمن المآسي و حكايات مثمرة بالحب ، كأنها يراعات تريد احتضان السماء و إنارة هذا الكون .

ياقوته

جاء الوردي ابن نوّاف من مبكى أهل العزاء في قرية سبعان ، و كان قد ووري كبيرهم أي كبير هؤلاء القوم الثرى بسبب مرض فتك به منذ عدة سنين ، جلس الوردي قربي و كنا قرب دكان الجياد و المتاع لابن عمير فكنت كعادتي أترقب خروج جنينه الصارخة بنت غبر من بيت أهلها لعلي أتقرب منها بقول أو تكون بيننا صحبة نرتضيها ، فقال لي إذ هو جالس معي على جذع نخلة هاوية بلغت من العمر عتيا فقال ، أما تزال تلاحق بنت غبر الصارخة والله لا أراها إلا كارهة لك أو متلاعبة بحبك لها ؟ ، فقلت وما أدراك بها ؟ ، فقال لا يحتاج الأمر لدهاء للفهم و إني لا أراها إلا كذلك فهي تعلم بحبك لها لكنها لا تزنه في عقلها وزن الريح ، ففكرت غير بعيد فقلت له ، ما العمل الآن ؟ ، فتعجب الوردي مني فقال هل أخذك الجنون إلى هذا البعد ؟ و ما كنت أدري أنك بلغت من مصابك و جهدك هذا المبلغ ، فأدركت خطئي من هذا الجواب ، فقال ببسمة تلوح في ملامحه و رقة ألحظها من كلامه إن النساء دنيا إن سعيت خلفهن تجنبنك وان عزفت عنهم أردن بلوغك وان كنت في بطن أمك ، فأخذ يحدثني ويقول ، لا أراك يا ابن الأشارف أنك بلغت هذا المبلغ إلا مسحورا ، أو عالاً ، أو ضالاً في أمور الدين والدنيا ،و أكمل قائلا ، أخالك سمعت أمر الواقد ؟ ، فقلت بلى ، بلغني ، لقد تزوج على حبيبته شيفه ، فأكملت فقلت كيف وما الصلة ؟ ، فقال أيملأ البحر شيء ؟ ، قلت لا ، فقال ، كذلك نفس الرجل تتلبد وتعصف ولا يفيض بحر ولا يملأ ولو غرقت فيه نساء الدنيا ، فقلت ، على رسلك يا ابن أخ لست الواقد و لا تشبه حبي بحبه ، فقال ، ألم تقل بنفسك في دار ثغلب حين كنا نشرب أنك لا ترى أمرك في جنينه إلا كأمر الواقد لشيفه و هل نسيت أم غلبك سهوك ؟ ، فغلبني صاحبي في حجته فسكتت فنظرنا ورأينا قاطع ابن زهرة قادما تعلوه بسمة فتبسم الوردي لقدومه و ازددت اشمئزازا منه فلما وصل إلينا و أقرأنا سلاما غير سلام الكرام فقال سلام على أحباء يهوه و أحباء المصطفى و أبناء ابن البتول فكنت قد استغربت من كلامه لكنني أعرف أنه لا يقدس شيئا ، فهممت بالمغادرة فقال لا تبرح مبرحك يا صاحبي ولا تنزل عن مستقرك فأنت أخي أو كمثله واني لا أراك إلا كما يرى الأخ مصابا في أخيه فلا نتركنا وقد جهدت في القدوم نحوكم وارتضيت صحبتكم و أنسكم فخاطب الوردي فقال ، يا ابن نوّاف ألا تزال الجيرة همك ؟، فأجابه ، بلى والله والكل في حديث عن هذا حتى قرية الغرب و إني مشيت بسوقها من

جهة بئر العنبر فوجدت ثلة فحييتهم وقالوا لي ما لك يا ابن حارس الرمان ؟ ، فقلت مالي أنا ومال الدنيا أسعدكم الله ، فقالوا أسعدك الله وهل جيرتك أثقلت سنينك ؟ ، فقلت والله إني شاكي والله المنيب ، فكنت لا أنظر إلى ابن زهرة وهو يحدث ابن نوّاف فقال لي كأنه يهزأ بي ، ألا تزال الثعالب خلف الغزلان أم طال بي عمر لأشهد أنهم صاروا خلان ؟ ، فحيّا الله الغزال في عيونه و لعنة الله على الثلعب الجيعان ، فقلت أما أنت يا ابن المستفرية بعجم الزبيب فصلي على الهادي الأنيب الحبيب أو لأغمرنك غمر الليث للثعلب والصقر للأرنب فهممت لضربه فقاطعني الوردي قائلا ويحك يا لك من شؤم ، انظر إنها ذات العيون خارجة لحاجة ، فضحك الاثنان علي وأنا أنظر إليها قادمة فكانت تمشي مشية الملكة ، تهتز بفخر وتعلوها بسمة ناصحة ، فكانت تتدلى على حاجبيها خصلات شعرها الفحمي و لبست خمارا داكنا يكاد يغطي وجهها إلا القليل منه ، تتدلى منه جدائل من فضة ترن كلما خطت خطوة بشموخها ، فكانت عيونها تتقد في الخضرة متفتحة مرة وترمش كأن الغزال طاب والقلب ملبي بالبسملة ، فسلمت علي فرددت عليها ، فلما غابت عن ناظري بين الأزقة رحت كي أتبعها ، ليس من حب وحسب إنما من شك أن لها صحبة ، فقد أخذت مني العقل والروح واني والله من خوفي عليها أن يأخذها أحد غيري أو تكون محبة لغيري فلا أرى في يومي غيرها ولا في منامي غيرها ، فأمسكني قاطع من يدي و قال يا صاحب الخد الأحمر و الوجن الأسمر ما كان أبوك عبدا للنسا و ما كان طالب دنيا ، أتلحق العار بأهلك رحمهم الله و أنت رأس مالهم ؟ ، ، فقال اجلس هداك الله ، فجلست وقد إلتبستني حرارة ، وضاق تنفسي وحتى أني كنت أسمع قلبي يعدوا في خلجان ضلوعي من ما رأيت ، فقال ،جئتكم بأمر هام فقال لي ، قد تكون لك من الأمر حاجة ، فقال الوردي ،فما هو ؟، فقال قاطع ، لقد جاء مبرح إلى سوق الغرب أمس ، بعد صلاة الظهر ، رسول من ملك الأكاسرة ، جاب كل ديار الصحراء و جنان البطاح والأردن و عقربا ، يطلب مدونا في الأحاجي والسير و أخبار السلف والجبابرة ، فيكون في بلاط الولية أمة الله ياقوته فيسرد لها الأساطير والعبر والسيرة فينزل بها ضيفا ما شاءت أن ينزل في قصرها إن كان ما يسرده لها يلبي لها خاطرة ، فتكرمه بالذهب والكنوز وزن ما كتب و سرد ، فأنت يا ابن الرومية أهل للأمر ، سارد للقصص و أخبار الجبابرة فهل لك في الأمر حاجة ، فقلت ، أو أترك جنينه ؟ ، و أسعى خلف المال و بلاط الملوك و الأكاسرة ، فقال الوردي أ أساءك الله في عقل أم سؤت نفسك فيه يا ابن الرومية ؟ ، فقال إنها ياقوته وريثة الأكاسرة ، أ أعجبت بحياتك هذه البائسة ؟ ، لا تأكل حتى تقص في مجالس الشاي و السكرة ، قال لك أن الرسول جاب كل قيعان الصحراء باحثا عن ساردي الأساطير البالغة فيكرموا بكرم ولية والله و ينعموا من فضلها ، فقلت مالي لي أنا ومال ياقوته ؟ ، هي في السماء العليا وأنا في الهاوية ، لست طامعا في دنيا فمشربي صاع لبن و طعامي خبز في مياه الأغوار مغمس ، فكيف سأنال عندها هذه المكرمة و إذ بكثر مثلي سيلبون النداء و يطمعوا من عندها خاصة ، فقال لي قاطع ، يا ابن الرومية لقد كنا خلانا وصحبة منذ أن كنّا غلمانا لم نبلغ الحلم و لم نفهم اللغة ، إن لم تجمعنا أخوة الدم أو أخوة العشيرة فقد جمعتنا تلك الأيام الخالية ، لقد جئتك بأمر قد يفرق في حياتك و يجعل لك مفرجا ، لا ترضى ببصل أو صاع شعير تأخذه من أصحاب ديار الشرب ، فظللت أنظر إليه و أفكر فقال الوردي لي ، لا أرى أخاك هذا إلا محبا و أنت تتحاشاه حتى في درب جمعكما صدفة ، انه محق ستحصل من ولية الله على حياة كريمة قد تعيلك مهنتك عندها و ربما قد نلتقي يوما و نراك في أوضاع حسنة فتستفيد فتفرح و نستفيد معك ، فكنا لا نزال في الحديث حتى أقبلت الشمس إلى مستقرها في الغرب ثم مضينا مغادرين إلى دار ثغلب حيث كنت أسرد أساطير الساسانيين ، فلما عبرنا قنطرة القاضي عند وسط القرية أتانا من الخلف فارس شديد المرّة ، من لبسه تلحظ أنه ليس عربيا بل كان فارسيا ساسانيا ، فشق بيننا الصف فغضبنا من سرعته و عياطه على حصانه ، فغضبت عليه ونهرته و حمدا لله أنه لم يسمعني و إلا لا أدري كيف

ستكون عاقبتي ، فقال قاطع ، انه ابن دينار ، فقال الوردي ، و من هو ؟ ، فأجابه فقال له ، انه فارس سوار الذهب رسول ولية الله الذي يجوب الصحراء ، فمضينا ولم نعره شأنا.

فلما بلغنا دار ثغلب جلست و أخذ أصحابي كل مقعده وكان الحضور كلهم في توق لما سأسرده فقبل أن أبدأ نظرت لغلام ثغلب و اسمه سريح و كان لم يبلغ العاشرة ففطن فأحضر معه صاع لبن فقال أدرك فتراقيك لن تتفتح إلا بعد أن ترتوي بلبن بارد ، فكان ذلك الصاع أول شيء أشربه منذ مغرب اليوم الفائت ، فانتعشت و سويت قعودي فبدأت الحديث و قلت ، يال العار ، فكان الحضور متعجبين مهمهمين فيما بينهم فقلت ، يال العار و الويل ، من يرثي لسانا ثاكلا من الكلمات ، فزاد الحضور تعجبا وهمهمة فكانوا يصغون بقلوبهم قبل مسامعهم فقلت ، لقد فنا الكرام وبان اللئام ، لقد فاضت الشرور و غار السرور ، أبي لا تفرح بي ، أبي لا تفخر بي من بكائي حين وجدت للدنيا ، فلا تلتقي الغبطة بالدموع و لا تنبت الروح الطيبة في دنيا الحزن ، ها أ نتم هنا أراكم أيها القوم مجتمعون ، تركتم سعير الصحراء و ضنك نهاركم لبيت السراء ، فارقتم طائفتكم لحين من عشرة ضراء ، لبيكم أنا في خواطركم فلن يمسها كدر و أنتم بقربي كالأمراء ، فاسمعوا وعوا و إذا وعيتم فانتفعوا ، لقد جاء في ألسن الغابرين ، الساسانيين منهم الفانين . السارين دروب الهوى و الأقوام بين الكلمات ماضين ، كانوا بلاء الله في أرضه .

جموع كسيل من الأبدان و الأرواح تحملها خيول كأنها خيول جهنم و خلفهم عيال ونسوة باتوا عليهم في نواح ، قد أفلح البارون ، من رخصت أنفسهم أمام عظمها ، و من منهم آثر القدر اليسير اليسير على الكثير العسير ، يا من أرى وجوهم اليوم بائسة ، من حياة مفترسة ، أرجوا الباري القدير ، الضاري على كل شيطان من انسي أو جني شرير ، أن تكون لقيا محبة ، و جمعة قلوب روية ، و تبصرة للأرواح ندية ، فتصفو النفوس و تربط النقم و تشرق الوجوه بعد عبوس ، يا من الآن حي يرزق ، هائم بين المدائن يتسوق ، الآن أنتم بيتون و غدا أنتم فانون ، إن لي قول حذق ، غير شذق و غير نزق ، كم أهلك في القرون من فرد و جمع غفير ، قبلكم أيها الجمع الكريم ، فلا بؤس شكوا منه بقي أو سرور فاكهوا به ضل لهم قرير ، إن في جيش عبد النار كيشار ملك الفرس خبر جليل ، أعلامهم جلود العفاريت ، دروعهم صدور الغيلان من أعماق الجحيم ، لا يعدون ولا يحصون من عدة أو عدد و بين قناهم صوت صرير ، تدك خيولهم الحصى فيرتد الشرر طائرا و لو لفح وجها لأدماه من حرقة فلا تكاد ملامحه بعدها تبين ، ليست بدواب أو جن بل كالشيطان لو أرادت في السماء أن تطير ، أولهم عند بابه العظيم و آخرهم قد بلغ لتوه حصون العدى من عجم و عرب و بربر و مقدونيين ، قد عموا الفساد والرعب في دربهم ، فلم تقم نخلة بعدهم أو دار أو أمن خلق أو سلم منهم حجر دميم ، أثخنوا في أهل الأرض حتى فنيت الأكفان و تراصت المقابر و كثر العويل ، استكبروا على القوي قبل الضعيف ، و أذلوا الكبير قبل الصغير ، لحين سأنهي خبر الجيش الجرار ، الغازي الضرار ، قلوبهم كزبرة الحديد ، وجوههم غلاظ و بأسهم شديد ، فأقبلوا عند وادي سحيق ، فسأل القائد عن اسمه فتوالت الترجمة عن سبعين ترجمانا فكل بالكاد يبين ، فعرف أن جيشه نزل بوادي يضا ، فقال له أحد الأسرى الذين عنده من من كان صياد وحوش من إحدى قرى أرض البيض ، قال له أنه وادي من أودية أرض الجحيم ، تخرج من باطنه الشياطين لتفسد خلق الله أجمعين ، فأردف له الصياد الجريء و هو يحدثه بقلب شجاع وعقل سديد ، أنه لم يفلح غازي و لم ينبت فيه زرع و لم تسر دابة أو مخلوق فيه إلا خطفته الشياطين إلى أعماق السعير ، فقال نحن نعبد هذا الوادي من دون ربكم وقصد له النار ، نتقرب إليه بولداننا و بدوابنا و حتى بآبائنا ، فقال و إن لكل أرض رب ، ولكل رب مقعد وعرش و قرار مكين ، هذا هو عرش ربنا فان غلبتنا أيها القائد العظيم فان ربنا عليك منتقم قدير ، فضرب قائد جيش الساسانيين

الصياد بسيفه ضربة فدقه نصفين ، فأمر بباقي الأسرى فقتلوا ، فرفع سيفه وتكبر و غرسه بغلظة بين رمضاء الوادي و تجبر و أمر برأس الصياد على نار فطبخ فأكله ، فكان الصياد كثيف الشعر حتى أن رأسه طاب قبل أن يحترق شعره ، فعلها ليكون مهابا بين جنده و على مسامع العدى ، فقال لن أبرح هذا المستقر حتى يخرج إلي هذا كبيركم أو لأبيدن شعبه حتى آخره ، فأمر بنصب الخيام و إطعام الطعام ، و أمر بالدف و المزمار والعربدة والرقص فكانوا كذلك ليلتهم حتى ناموا من شدة السكر إلا كاهنا واحدا ، شاب عزف عن المتع و آثر العبادة والصلاة ، أرسل معهم ليصلي على أرواح موتاهم و يقيم لهم العزاء ، فحين كانوا نياما و السروج يكاد يفنى منها الزيت حتى خرجت من تحت الأرض شياطين ، ببسمات و ضحكات و نظرات خبيثة ، نتحسس و تشتم كلا منهم من الرجال والنسوة فأخذت الواحد تلو الآخر للجحيم فلما فاق القوم من شدة الهول و لو كنت على مرمى شهاب لسمعت صيحات الرعب منهم و رأيت وجوهم الخائفة في تلك الليلة الظلماء ، فكانت الشياطين تخطف الفرد منهم وتطير به في الأجواء فتهوي به لباطن الأرض ، أو تسحل الواحد منهم في الأرض فتضحك عليه إذ هو في فزعه و نتبادل اللعب به كأنه صبي حتى تهوي به للقاع ، فكان القائد و المحارب الشجاع يقاتلهم بقوته ، و تسمع الغلظة من صوت صرامته ، و كان حرسه يذودون عنه فتم النيل من بعضهم حتى أهلكوا جميعا و بقي هو وحيدا يقاتل حتى خارت قواه فمسكه أحد الشياطين من ذراع والآخر من أخرى فسحبوه فشقوه نصفين وكل شيطان أخذ نصيبه إلى أعماق الجحيم ، فقلت لجمع الحضور في الدار ، مالي أرى رؤوسكم مطرقة و ألسنكم معتقلة و وجوهكم تعلوها قترة ، فكانوا ينظرون إلي صامتين خائفين فقلت إنها والله لصحبا الشقي و ولية الفري و نقمة العصي ، و إهانة العلي ، إن ربكم خلقها بقدر ، ليذهب عن الحق الشدر و يقيم الحجة على كل ما بدر ، فصمت و أنا أنظر إليهم بحزم مدة فقال قاطع و هو في شوق ، أكمل طيبك الله ،فقلت، أيها التعساء في دنيا الفتن ، طوبى لكم فأنتم من يعمرون جنب الله ، إن الصبر صاحب ، خليل كطيف في الدنيا يسكن كل قلب واسع راحب ، أراكم وهنون ، تورون الضعف بغلظة ، و إن الفرس والجبابرة يهابونكم في الوغى ويقولون سحرة برابرة ، لكنكم والله كطود رماد فما أن تميل الريح بوجهها حتى تذروه بين البلدان ، إن الجوع شيطان كافر ، يسوس في العقول كما ينخر المسمار الحافر ، يجعل الخليل خصما و يجعل دم الولي الحميم دم كافر ، أنتم في الوغى بين طعن العدى أمامكم و طعن القتر و الجوع خلفكم ، فأنتم لن تخسروا إن خسرتم و أنتم ظافرون و لو بقليل عاسر ، فأكملت قائلا ، استيقظ الشاب و نظر حوله ، فرأى تلك الشياطين تحدق إليه ببسمات خبيثة ، تتغامز بينها كأنه فرجة لها ، أما قومه الغزاة الأكاسرة فلم يبقى منهم سوى خيولها ورحالهم و كانت الفوضى تعم معسكر الوادي ، فكانت الشياطين تسخر من شكله و تضحك من خوفه ، فتقدم إليه كبيرهم وقال ، أنتم الفرس أنوفكم كبيرة ، و مرّتكم مريرة ، و في الوغى سباع قسورة عسيرة، تجبرتم في الأرض و سعيتم خلف فتنها و نسيتم ربا و حسابا و نشورا ، فتقدم إلي قليلا واجلس قربنا فأنت صاحبنا اليوم و إنك والله قد زرتنا فاصبر على ضيافتنا ، فجلس على حجر و أمسك بقلادته بإحكام و كان يرتل الدعاء ، فقال الشاب خائفا ، ما أنتم فاعلون بي ؟ ، حيث رأى تلك الشياطين تنظر إليه و تضحك منه ، فقال كبيرهم أتخاف من الموت الآن وقد قطعت البلدان سيرا معها ؟ و ما عليك من الموت إن هي ضربه ، و أكمل ، أخالكم شجعانا ، وضعتم الدنيا تحت نعالكم و تجبرتم واعتليتم و ها قد خاب ظني بكم إذ أنت تخاف أمرا لن تتمكن من تجنبه ولو نجوت منا الآن ، فقال الشاب ، صحيح ، لكن لكل مقام مقال ولكل موعد أوان ، فاني والله لم أحمل سيفا ولم أضرب بسهم و لم أمس دما من قبل ، فقد أمرني كاهني الأعظم بالسير خلف الجيش لأقيم العزاء لموتانا ، ليكرموا بحياة أبدية ، فقاطعه كبير الشياطين قائلا و ما تراك الآن ترى فيهم ؟، فقال الشاب ، لم أفهم ، فقال كبيرهم ، هل بلغو حياتهم الأبدية ؟ ، فصمت الشاب فقال الشيطان ، أجب فأنت كاهن عالم ؟ ، فقال الشاب ، لا علم لي فقد دخلت الكهنوت

لآكل من ما يأكلون و أنعم بما ينعم عليهم القوم ، فقال كبير الشياطين ، بالتأكيد لكن لنسأل سؤالا عاقلا فهل بعد أن أفسدوا في البلاد و عموا الإرهاب بين العباد تراهم يكرمون بحياة أفضل ؟ ، فأكمل بعد صمت وجيز ، انظر إلى ما انتهوا عليه ؟ ، هل يعطيك حكمة ؟ ، قل لي كيف تؤدي لهم العزاء ؟ ، فأجاب الشاب ، ننشد لهم و نضعهم في قبر من حجارة أو نقطعهم لتتبرك الجوارح منهم ، فقال الشيطان الكبير ، إذا أقم لهم العزاء ، فقال الشاب كيف ؟ ، فهم مختفون ، فقال الشيطان ، أترى لقد انتهوا لقد فنو ، كانوا هنا أما الآن فلا شيء ، فقال الشاب و ما أنتم فاعلون بي إذا ؟ ، فضحكت كل الشياطين في الوادي عليه ، فقال له الشيطان ، اصبر علي قليلا ، أتراني إن أعطيتك ملك كيشار أو ملك الجبابرة أضعافا منهما هل تلبي لي هذه الرغبة ، فقال الشاب و ما هي ؟ ، فقال الشيطان هل شاهدت يوما عرش كسرى و عرش ملك الجبابرة ؟ ، قال الشاب لا ، لكنه بالتأكيد عرش عظيم ، و ملك كبير ، فقال الشيطان فإن روحك هي البدل ، فتعجب الشاب و تساءل إن كانت روحه أغلى عند الشيطان من ملك الفرس و الجبابرة ، فوقف الشيطان فوقف معه الشاب فسارا يتحدثان حتى بلغا صخرة فتحركت و ظهرت من تحتها أدراج متّقدة ، تتصاعد منها أدخنة خانقة و لها صوت مخيف ، فصعق الشاب و قال هذا ربي ، فضحك الشيطان فقال الشاب ، و لما تضحك ؟ ، فقال الشيطان لا عليك نحن مجرد مغلوبين مظلومين مجبورين رمت بنا الأقدار أن نكون خصمين أو خليلين ، فأكمل الشيطان أنت محظوظ أيها الكاهن صاحب الأنف الفارع ، فان مولاتي أميرة الزرق استلطفتك و أرادت أن تكون لها خاصة فتجلس قربها فتأتمر بأمرها ونأتمر بأمرك و لك فيها ما طاب لك أ عرفته في هذه الدنيا أم جهلته ، فزال به يحدثه و كانت حرارة الحفرة تلفحه حتى ابتعد قليلا عنها و قال له الشيطان ، ما بك نحن في الهين ، تقدم و لا تخف سنكون سعداء بك ، ففكر الشاب فلما وضع خطوة في الدرج حتى بدت من تلك الشياطين ضحكات خبيثة فكان وجلا من خطواته و الشيطان الأكبر يحثه على المضي فلما ابتعد في القاع أغلقت الصخرة المدخل وعاد كل شيطان إلى باطن الأرض ، فتعالت صيحات في دار ثغلب فصاح أحدهم شاكرا لي و أكرمني آخر ببصلة و رغيف كسرة ، فلما أنهيت هذه الحلقة من السرد عاد كل إلى حديثه مع صاحبه فكان المؤذن أذن لصلاة العشاء.

فلما قصدنا أنا و الوردي المخرج بعد طول حديث رفقة النزلاء تأخر عنا قاطع فقد اشتغل بالحديث رفقة أحدهم فلما فرغ من حديثه مضينا نحن الثلاثة خارجين من الدار و مشينا بين الأزقة حيث كان المصلون يغادرون فرادا و مثنى من المسجد بعد صلاة العشاء ، لكن حين وصلنا لنبع رضوان الأسدي سمعنا جلبة من إحدى البيوتات الصغيرة الملتصقة فيما بينها ، فكان صوت امرأة و رجل يعليان الصوت و يتخاصمان ، فقال الوردي انه جريب العاق ، فعرفنا من يكون ، فهو شاب عاق لوالدته و أبوه فارق الحياة حين كان رضيعا بسبب مقتلة حصلت بين قريتنا وقرية سبعان في أعوام فائتة بسبب حوش من النخل ، لكن حينها تجمعت القبائل والعقال و أصلحوا بيننا ، فلما التفتت رأيت الوردي ذاهبا نحو تلك الدار فقال له قاطع ، ويحك أتدخل على بيت عنوة ليلا و أهله موجودون ؟ ، فلم يرد عليه بل دخل عنوة عليهم فأشبع الوردي جريب ضربا حتى أدماه فكان يلعنه فما زال به حتى فرقنا بينهما .

في اليوم التالي بعد تفرقنا في تلك الليلة ، كنت قرب دكان الجياد لابن عمير كعادتي ، أتناول البصلة و رغيف الكسرة الذي بدأ يصطبغ بلون المداد ، فناداني صاحب دكان المتع لأساعده فذهبت إليه فكنا في شغل حينها حتى قدم الوردي و سلم علينا فقال له ابن عمير ، ما القصة التي سترويها لنا عن ليلتك ؟ ، فضحكنا ، فقال له ، إنها والله كالزئبق في العين ، أينما وضعتها ستعمين ، إن سألتها عن حلم فهي لن تلين ، وان طلبتها في هم أنتك في الحين ، فضحكنا عليه ، فقال له صاحب الدكان ، خيرا و ماذا حصل ؟ ، فأجابه الوردي قائلا ، لم أدخل داري إلا في أخمص الليل عمدا ، لكني لم أنم و لم تتم فقد كادت تدك

السور بيننا من شدة الطبل ، فضحكنا عليه ، فأكمل قائلا و في فجر اليوم تعمدت الخروج عند البصيص الأول وجدتها ترش ماءا به كتل ملح فقلت لها ، يا ابنة الناس ماذا تصنعين ؟ ، فقالت لي ، أطرد الشيطان من دارك ، فضحكنا ضحكة صريحة ، فقلت للوردي و الله إن المرأة لا تريدك إلا في أمر جلل ، فقال ، كان عليها أن تقول ذلك لي و ليس حتى تسمع بنا الأعراش من القوم ، نحن في فضيحة و الله المستعان عليها ، أبدا ، لن أقبل بها ولو أحضرها لي ملك الأكاسرة ، فضحكنا عليه .

لم تكن علاقة الوردي ابن نواف رفقة جارته علاجة هكذا من قبل ، فقد تربيا في نفس الحارة و جمعتهما أيام طيبة و تربط عائلتهما علاقة قوية لكنه تزوج امرأة أخرى ، لم تكن خصبة فكلما ولدت له توفي الصبي ، حتى فارقت الحياة و لم يشأ التزوج بعدها ، فإذا تحملت علاجة غلطته الأولى إذ لم يتزوجها فهي لم تتحمل غلطته الثانية إذ لم يتزوجها بعد إن ماتت زوجته، لكن العلم بالسريرة عند الله فهذا ما يقوله القوم عنها ولا أدري حقيقة ما تشعر به المرأة تجاه هذا الرجل .

فكنا الثلاثة في دكان المتع و الجياد حتى قبيل صلاة العصر بقليل ، لم أكن ذا حظ في ذلك اليوم إذ لم تخرج حبيبتي من دارها ، فالنساء كانت هذه عادتهن ، و المرأة المحتشمة شريفة و ذات أصل و التي ترخي عن نفسها المشد فالعرب يذمونها و يذمون أهلها ، لكن شهادة لله أني أحب تلك القرة من قلب صادق ، و نية حسنة ، و أعتبر عرضها عرضي و شرفها شرفي ، لكن ما غصني أن ابن عمير لم يقدم لي كعادته بعض قطع البلح و التمر ، سامحه الله لكن لدينا وصية من رسولنا الكريم عليه الصلاة و السلام ، أن نعطي لأخينا عذرا قبل أن نحكم عليه ، فلا يجب أن نستبق الأحكام و نحكّم الشدة على الحلم ، ربما نسي أو لم يكن عنده ما يقدمه لي أجرة على عوني له ، فلما خرجنا من الدكان شعرت بألم في بطني ، كان شديدا و شككت بأنه الجوع ، فأخذت حجرا وجدته في طريقي و شددته على بطني لأمحق ذلك الشعور ، فأكملت رفقة الوردي السير نحو منزله .

فلما وصلنا إلى حارته وجدنا جمعا من النسوة والصبيان جالسين في حلقات يتسامرون و كانت إحدى النسوة تفلي ابنتها ، و تأكل القمل ، و جلست قرب هذه المرأة جارة الوردي علاجة ، فالوردي غض بصره و أنا لم أهتم ، فحين هم بفتح باب بيته قالت له المرأة التي تفلي ابنتها ، مالك يا ابن حارس الرمان ألا تعلم أن الشيطان يمكث في بيت الرجل الأعزب أم لم يبلغك قول الرسول الكريم ؟ ، فنظر إليها الوردي و لم يدري ما يقول فنظرت إليه و لمحت خده قد احمر ، فقالت لها علاجة ، بل قولي ما لك ابن سارق الرمان ، أختثت أم فنا الرجال ؟ ، فكان نوّاف ابن عبد الغافر والد الوردي حارسا في إحدى جنان أحد الأثرياء من قرية الغرب ، لم نسمع عنه أنه سرق لكن علاجة تدعي أنه كذلك ، فاحتار الوردي كيف سيرد فأكملت علاجة بصراحة لسانها السليط فتقول بازدراء ، أصحيح أن نوّافا كان لصا ماجنا يغدر بسيده و كان يطعمكم الرمان و الفواكه من حرام يده ؟ ، فقال لها الوردي أنت امرأة سلقلقية بك شيء و قصد لها أنك مجنونة ثم أكمل و لست أهلا لامرأة تغدر بجارها فان كانت كذلك فما عساها تفعل بصاحبها ، فضحكت النسوة عليه ، الحق يجب أن يقال فلا أدري ما تجد تلك المرأة من صاحبي حسنا ، لكنه كان سوي البدن شديد البياض و أهلبا حسن الوجه والخلق و إسماعيليا متقي محب لبيت النبوة ، فدخلنا البيت و لاحظت أنه قد ثقل عليه القول في هذا الملتقى ، فقد احمر وجهه و كأن عليه ظلل و أصبح يزفر كالجواد.

فقلت له عندما كنا في بيته ، لما لا تتزوج المرأة والله إنها امرأة طيبة ؟ ، فقال ، لن أخلف وعدا قطعته على امرأة ضحت من أجلي و حملت أربعة أبنائي و شدت أزري من فراقهم على أزرها ، لم أشأ نبش الماضي العسير و لم أحاول تغيير رأيه فالأمر لا يعنيني ، لكن صديقي الوردي قدم لي بضعة تمرات

فأرخيت المشد و الحجر من على بطني و سمية الله و أكلت فكانت تلك التمرات تمرات لذيذة ، فبعد الجوع أول لقمة تكون طيبة ، فتحدثنا عن أحوال السوق الذي سيكون عامرا غدا في قرية الغرب و قررنا الذهاب معا في الغد .

فحين اقترب مغرب الشمس كنت في دار الوردي آخذ قيلولة فاستيقظت من الألم في بطني و دوخة و غثيان ، فشكوت أمري لصاحبي و عرض أن يطلب الطبيب ، فقلت أني لا أملك ثمن رغيف الخبز فكيف أدفع ثمن الطبطبة ، فاسترجعت الأمر فتذكرت أنني أكلت الكسرة التي فسدت و أصبح لونها بلون المداد ، فتأسفت أني لن أذهب لدار ثغلب لأسرد الحكاية و أحصل على ما يسد به جوعي ، فبت ليلتي في بيت صاحبي مريضا متوعكا ما إن يغمى علي حتى أفيق فيغمى علي .

في الصباح حين استيقظت تحسنت قليلا حالتي إلا بعضا من الدوار و الوهن و أشعة شمس الصبح التي تبدوا من شقوق السقف كانت تؤذيني ، فارتحلنا إلى قرية الغرب راجلين باكرا قبل أن تزداد أشعة الشمس هيجانا ، فحين كنا نطوف في سوقها و نتفحص السلع لقينا قاطع و كان رفقة صاحبه ضامر و كان هذا الأخير قنّا أعتقه سيده لأنه أتى أهله في نهار رمضان ، فقد سمي ضامر لضمور و هزالة جسده فلم يكن عبدا نافعا لصاحبه فأعتقه حين وجب له ذلك ، فكان سيده لم يدع حلا في تسمينه إلا فعله ، فكان يأكله السمن و الطحين و حتى أنه قيل أنه أسقاه عسلا ، لكن دون جدوى ، فقال لي قصم الله ظهره و أقصد قاطع ، أرى أنك تأتي السوق سائحا كل مرة ، فلما تشق على نفسك في حر كهذا و زد مغبة الطمع في حاجة لا تملك ثمنها ؟ ، فقلت له ، إن السوق للناس أجمع و لا أرى كافرا مثلك إلا و أرجو أن يكون سلعة فيه ، فضحك علي وقال ، أ أدلك على خيمة سوار ؟ ، فقلت ، ومن سوار ؟ ، فقال ، سوار الذهب ، فقلت يا ابن أخ أسألك فترد بنفس ما سألتك عليه ؟ ، فقال ، أنت شخص غر و انك نسيت أنه رسول ولية الله ياقوته ، فتذكرت من يكون فقال عليك أن لا تكثر في الإطالة فبعد أيام سيجهز المسير و يحدد الموعد للقاء جميع المدعوين ليرتحلوا إلى بلاط ولية الله في بندر ، فلا تطل في قرارك و إنها والله نصيحة مني لك ، فرفضت الفكرة التي عرضها و أخذنا نطوف في السوق و كل من أصحابي اشترى حسب استطاعته إلا أنا فلم أشتري شيئا. .

فلما عدنا إلى القرية بعد مشقة سفر أثقلت علي ، ذهبت إلى دكان الجياد لابن عمير فكانت الدوخة و أشعة الشمس قد نالا مني في مسيري بين الأزقة ، فرأيت حين وصلت للدكان جمعا من الخيول و الإبل قرب دار جنينه فتساءلت في قراراتي ، فلما سألت ابن عمير قال بأنه لا يدري لما قدموا لكنه في الواقع كان يعلم ، فكنت جالسا و شعرت كأن الدنيا تدور في رأسي و السارون في الشارع كأنهم سكيرون مسارعون في خطواتهم فلما سمعت الزغاريد خارجة من تلك الجموع صعقت وخفت فوقفت أنظر إلى البيت وجلا مترقبا و بعد مدة خرجوا و ارتفعت الزغاريد فلم أتمالك نفسي من شدة مصابي و سقطت على الأرض مغميا علي .

حين استفقت في داري و أصحابي حولي يواسونني ويصبرونني و أرى فيهم إشفاقا بادرا ، فمن شدة همي و حزني زال عني الجوع فكل تفكيري ذهب نحو حبيبتي التي خطبت ، لعدة أيام حبست نفسي في الدار فلم أكن أرى نور الشمس إلا من فتحة في السقف المتداعي من القدم ، حتى شعرت بتثاقل في بدني و أصبحت يدي ترتعش لوحدها من الوهن فلم أكن قد تناولت شيئا منذ أيام فخرجت لنبع رضوان الأسدي لأشرب بعض الماء و أغتسل ، فحملت قربتي و مشيت متثاقلا مترنحا .

فلما عدت في مغرب ذلك اليوم لدار ثغلب رأيت أن مكاني كسارد للقصص قد شغره أحد غيري ، فقد طال مغيبي و خشي صاحب الدار أن يخسر ضيوفه فجاء بأحد غيري ، في تلك الأيام السوداء كانت المصائب تتنزل علي صيبا ، فلم أجد غير الوردي و قاطع معينين لي ، فحسب استطاعتهما كانا يحضران لي بعض التمر أو اللبن أو الخبز ، لكن لن أكون عالة على أحد و الصحبة صحبة و ليست أمومة ، فعند أي لحظة قد تتقلب و أجد نفسي ضائعا في براثن البؤس لوحدي ، فان أكثرت عليهم انفضوا من حولي ، فحري بي أن أعتمد على الله أولا وعلى نفسي و أرضى بقسمة و قدر رب العالمين ، فقررت الذهاب لخيمة سوار الذهب لأجرب حظي عند الولية أمة الله ياقوته لعلي أعتاش من خدمتها و أعيش حياة طيبة ، فلما بلغت السوق في صباح يوم الذروة سألت عن معسكر أمة الله و قالوا لي أنهم غادروا بالأمس و حددوا موعد اللقاء رفقة جمع من الساردين في شعاب نخلة ، أتذكر ذلك المكان عندما زرته رفقة خالي رحمه الله عندما كنت غلاما ، لكنه بعيد ولن أبلغه سعيا بقدمي ، فقررت أن آستعير جوادا من جياد ابن عمير و أغادر به ، فلما بلغت مربط الجياد لم أجد صاحبه فانتظرته و شق علي الصبر والقعود في ذلك المطرح ، فالتواجد قرب دار جنينه ثقيل علي و نظرات القوم هناك لي لا تروق لي فأخت الجواد دون إذن و استغفرت الله من فعلتي و غادرت به .

أسرعت بالجواد في الصحراء حتى ظهر عليه الإجهاد ، لكن حقيقة أقولها و لله ، أنني تعبت أكثر منه ببدني و بنفسي التي ضاقت بعد علمي أن حبيبتي ستملك من قبل غيري و ستقبّل غيري و ستلد من غيري ، فلما مضيت بالجواد بين القيعان و التلال ، عاودني مرضي من شدة هيجان الشمس ، فصعب علي تقفي أثر الطريق و ثقل علي الركوب و شعرت بعطش شديد حتى أني شربت من قربتي حتى آخرها ، كأنها نار هوجاء حامية استعرت في حنجرتي و تراقي ، أدرك أن ذلك خطأ لكنه كان عطشا والله مرير ، فتوالت الساعات حتى عاودني العطش مجددا لفلم أجد ما أسده به و قررت أن أسير في الليل و أستريح نهارا ، ثم غيرت رأيي فقد تخلفت عن قافلة سوار بيوم كامل ، فلما بلغت من الإجهاد ما لم أستطع به الإمساك باللجام ، سقطت منه نحو الرمضاء و رحت أتخيل و أحلم بالماء والتمر واللبن ، فقد جفت تراقي و شفاهي فلم أستطع الوقوف ، فزلت كذلك مستسلما لمصيري حتى خلت أنه الموت ، حيث رأيت رجلا شديد المرّة ، ليس عربيا بل فارسيا من لبسه و درعه لكني لم أدرك من يكون لأني كنت أهذي ، فلما بلغ قربي ترجل عن جواده و إذ برجل عربي لحق به بفرسه ، فمشى الفارسي نحوي فلما بلغني سل سيفه صلتا و همّ بضبي به ، فنهره العربي قائلا ، لا تفعل انه الفيروز ابن الرومية الداري ، فقال انه أحد ساردي الأساطير و حافظيها ، فأعطاني هذا الفارس و هو ابن دينار الماء و شربت و ارتويت فلما وقفت أخبرتهم أني كنت ألحق بهم ، فلما أخذت إلى القافلة و كانت تزيد عن خمسين رجلا من حرس و ملبي نداء أمة الله إضافة إلى عبيد و إماء قد أوصت جلالتها بشرائهم ، عرفت من حديثي مع بعض أفراد القافلة أن صعاليك و قطاع طرق هجموا عليها فنال الحرس من بعضهم و هرب آخرون و ظلوا يطاردونهم فظنوا أني واحد من اللصوص ، فلما ائتمنوا مني سقوا جوادي و أطعموني و لدّوني من سقمي و قال لي سوار الذهب أن علي أن أسرد له قصة ليرى إن كان سيقبل بي في المسير معهم إن حسنت أو يردني من حيث جئت فلم أجد ما أسرد له غير قصتي حيث خرجت باحثا عنهم ، فقبل بي و هو ضاحك و قدم لي بضعة دنانير كعربون على قبولي بنداء ولية الله ياقوته ، فكانت تلك الدنانير أكبر ما حصلت عليه في حياتي ، فلم أحصل قط على نقود بمثل عددها ، لكن شعرت بأسف عندما أنهيت قولي وضحك مني سوار لأنني خسرت حبيبتي ، فتوكلت على الله و مضيت معهم .

جدير بالذكر أن الفرس الساسانيين في عداء منذ القدم على أراضي ضد البيض الهياطلة ، و هم قوم شداد الجثة شديدي البياض و الحمرة ، لو دخلت أرضهم وجدتها بساطا من صحراء أو جبالا من قمم الثلج ، فكانوا قوما كافرين ، غلاظ لا يملكون حمية على أعراضهم فالواحد منهم قد يأتي أخته أو ابنته أو يبيعهما و كانوا فرسانا جلادا يحبون شرب الخمر و الرقص و العربدة ، سيوفهم كبيرة ثقيلة و يصعب على أي ضعيف القتال بها و كانوا يلبسون جلود الأيائل و قيادهم يلبسون جلود وحوش ليست تعيش بيننا ، يحلقون لحاهم أو لا يسرحونها لكنهم يطيلون شواربهم و ذلك ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ملكهم الأعظم كان اسمه خان ، و هم شعوب وثنيون أو عابدون للشجر و الحجر و السماء فمملكتهم عظيمة تضرب في كل أرض الله من مشارقها السبع إلى مغاربها ، و كانوا سحرة كفرة يقدسون الكهنة و العرافين و العالمين علوم الشيطان و من ينبأ بأخبار الغيب أعاذنا الله و هم يضعون في مدائنهم أصناما ويتقربون إليها بما يعزون ، فنسأل الله الهداية و أن يفرق بالحق .

مضينا بتوفيق الله في تلك الأرض الرحبة ، فكانت الشمس تتأجج علينا حينا وتقرضنا السحب والغيوم من ظلها كرّة أخرى ، قصدنا شعاب نخلة لنعسكر فيها مدة ريثما يلحق بها جمع آخر من الركب والسيارة ، أحمد الله أني أجد ما آكله بينهم و كل ذلك الفضل من فضل الله أولا ومن فضل وليتنا ، فان الإماء تخدمنا و يسقينا العبيد في مواقيت محددة ، فكانت القافلة تتوقف في أوقات الصلاة فيسوي المصلون صفوفهم فلا فرق بين عبد وسيد وحر و أمة ، الجميع يولي وجهه قبلة الله ، لكني لم أكن منهم و أسأل الله المغفرة ، فطِراً طارئ حين كنا سائرين ، فقد فارق أحد العبيد الحياة و يقولون لأنه كان منهكا يسير حافيا راجلا و حمل حملا ثقيلا ، فصل عليه القوم صلاة الجنازة و دفن في الصحراء .

فلما أطلنا على شعاب نخلة و كانت أرضا بين تلّة عمر و تلّة عمرة و سماهما العرب تيمنا بحبيبين من الجاهلية إذ قتل عمر حبيبته عمرة من حب ، و كان بين هاتين التلتين بئر يكاد يغور و يفنى ماءه ، فكان ماءه آسن لن يشربه الشارب إلا إذا كان في حاجة ، إذ يقولن أن نساء من الجن تلدن أو تحضن فيه ، لكن في تلك البوادي الضارية الجامحة كل مسافر أجزم انه شرب منه ، فوجدنا فيهما قوما سبقونا إليها بدو رفقة حرمهم و بعض ثلة من ساردي الأحاجي و السيرة ، هؤلاء أخذوا أعطياتهم و سردوا قصصهم للتجربة فكان من المعهود أن نبقى في تلك الشعاب ثلاثا ننتظر القادمين من قرى مرتفعات الجليل و يافا و الناصرة و إضافة لحضور من إربد و عقربا .

فنصبنا الخيام و طعمنا و سقينا و استرحنا ما شاء الله لنكون بخير و سلام ، ثم جاء أحد الحراس بجواده صارخا من على مرتفع يقول بأن الصعاليك قادمون ، فأمر القوم بسيوفهم و درعهم و أن الله نصير الأخيار ، فأخذ الحرس كل موقعه و اشتدت المعركة ، فكان قطاع الطرق رجلا أقوياء يقاتلون كالجن و سريعون كالريح و شجعانا كقسورة ، لكن القوة من دون عقل كسيف غير مشحوذ فلا عقل لهم إذ باعوا دينهم و دنياهم للشيطان و السرقة ، فأثخن الجمع في الجمع من ظهر ذلك اليوم حتى مغرب الشمس إذ لم يستطع أحد النظر لنجاد أو حد سيف خصمه فتوقفوا ، فسلك اللصوص درب النجاة وهربوا فلحقت بهم ثلة على رأسها ابن دينار فقتلوا من قتلوا و هرب منهم من كان ذا حظ عظيم ، فكنت في تلك الفترة في خيمتي و إني والله لرأيت الساعة يوما و اليوم دهرا إذ دنى مني الموت أقرب دنية حيث ما أن يكاد أحد اللصوص يدخل حتى يقضي عليه أحد الحرس بسهم أو برمح ، فالنساء خائفات وعديد العبيد حملوا السيوف أما أنا فلست فارسا أو سيّافا و إني أعف من النظر للدماء و أخاف الله فيها و كنت كذلك منذ أن عرفت و تذكرت نفسي .

لما هدأت النفوس و استراحت الأيدي من السيوف واطمأنت القلوب أحصينا قتلانا وقتلاهم ، فغنم الحرس سيوف القتلى من الصعاليك و ما حملوا معهم و حفظنا أمانات موتانا ، فزلنا في تلك الشعاب ثلاثة أيام حسب ما قرر قائد المسير ، ففي تلك الفترة انظم إلينا عديد المدعوين من ساردي القصص و عديد الجند بصحبة العبيد و الإماء الذين اشتروهم ، ففي فجر اليوم الثالث بعد صلاة الصبح ارتحلنا قاصدين حصون و حمى ولية الله ياقوته في بندر ، سنسلك أرض السريان و تلالها و نسلك أرض العراق و نقطع النهرين ، حتى نصل بندر في بلاد فارس .

كان السيارة ساكتين معظم الطريق ، لكن ما أن يبدأ أحدهم في حديث حتى يتبعه الآخرون ، لا أدري كيف لكن أعتقد أنه حين تكون هناك مشقة ليس على المرء أن يزيد معها مشقة الكلام ، أما أنا فطفقت في صمتي لا أزيد على ذلك ولا أنقص ، لكن والله ما جعت في مسيري إلا طعمت ولا عطشت إلا سقيت و كانت تلك حقا نعمة لم أعرفها ، بل كنا نخدم كما يخدم السلاطين ، فظل في قلبي شوق وحب إلى ولية الله ، بهذا الفضل والكرم فان و الله الملوك قطعة من ريحان الرب في أرضه و إنا نحن زفرة من تغيض الشيطان في جحيم الدنيا ، فزادهم الله طيبا على طيب و زادنا نحن رجسا على رجس و فوقها خيبة ، فالله بقلوبهم رفعهم الله عنا ونحن بقلوبنا المغلولة نهابر ككلاب على بعضنا ، فكلما أكلت دعيت لها خيرا و استبشرت بها و سألت الله لها عمرا ، فأردف الجمع معي عند القصعة ما أنا من الدعاء و بل أكثر مني .

فحين وصلنا إلى جبل الراهب أمر سوار الذهب بتوقف القافلة و أمر أيضا ثلة من الجنود بالتفرق في البعيد و تقفي أثر أهل الدير ، فلما عادوا مسرعين بخيولهم و سبقتهم صيحتهم إلينا أن الحذر الحذر أيها القوم ، فحينئذ وجلت القلوب و بردت الدماء في العروق لأن القوم في تلك الديار قوم غلاظ ، حيث أنهم لا يقبلون مرور القوافل بينهم إلا بعد أن تدفع لهم إتاوة ، و من تكبرت على الدفع قاتلوها ، فمن أراد طريقا طويلا وشاقا تجنب شعابهم ومن أراد طريقا يسيرا قصيرا تحت حمايتهم دفع لهم ما أرادوه .

فلما وصل فرسان أهل الدير إلى سوار ناقشوه وعرضوا له غايتهم فقبل بدفع الإتاوة و رحبوا بنا في ديارهم ثم اتجهنا إلى دار ملكهم ، فلما سرنا في أزقة مساكنهم رأيت بيوتهم لطيفة ، بنيت من الحجر والطوب و طليت بلون أبيض تتشرح له النفوس ، و عليها قباء خضراء و نوافذ صغيرة وديعة و الركائز الخشبية التي تدعم البيوت ظهرت جلية كمسننات ، كانت بيوتا طيبة و غالية فلا شك أن أموال القوافل تدر عليهم ربحا وفير ، فكان القوم ينظرون إلينا و أطفالهم يتبعون فرساننا الراكبين ، فاصطفوا في الأرصفة كل من رجالهم ونسوتهم يحدقون ، كانوا يلبسون الحرير الغالي ، ألبسة كانت فاخرة و تلك الحلي في أعناقهم و عماماتهم تلمع متأججة و أكثر ما استغربته هو وضعهم لريش الطاووس و القنبر و الحجل فوق العمائم ، فلما وصنا إلى قصر عظيمة بيضاء و قبائها العديدة زينت بلون أخضر و على قممها أعلام حمراء ، كانت محاطة بسور عليه حرس كثيرون و فوق كل قبة لا تجد إلا هؤلاء ، ملثمون مثيرون للتوجس و كلهم لبس الأسود ، يحدقون إلينا و أجزم أن كل واحد منا لن يود أن يكون خصما لهم في أي نزال ، فلما حضرنا مجلس الملك كنت من ضمن الجمع الذي دخل ، فالعديد منا بقي خارجا و كل الجند و ضعوا أسلحتهم و بقوا ينتظرون خروجنا .

فحين قدم سوار إلى مجلس الملك ركع له و حياه و تمنى له العافية و طول العمر ، فلا يزال يناقشه باحترام حتى توصلوا لغاية ، حيث أعطاه عديد الأموال وعديد العبيد و الإماء ، فلا يزال يعطيه حتى رضي ، فرحب بنا الملك لنبيت عنده و أرسل هدية ورسالة لملكتنا ولية الله رفقة بعض العبيد و الإماء ، فزلنا في تلك الليلة نحتفل و نأكل ونشرب و كانت الدف تضرب لنا والمزمار و ترقص الراقصات

حتى بدت ملامح نهودهن تظهر من رجرجتها فزدت أنا حرارة لكنني كتمتها ، فكان الحال كذلك حتى غلب التعب على القوم وناموا .

فحين كنت نائما بين القوم فوق بساط و حصير ، أيقظتني يد وضعت في فمي تكتمني ، فكنت أختنق و فزعت فحين خفّت وطأت اليد علي قلت وجلا ، أرسلني ....، فقد توهمت أن قاتلا أراد سفك دمي ، و إذ بصوت رقيق يقول ، لا تخف ، فلما هدأت قالت هذه المرأة ، أ أعزك الطرب استهواك الغناء ؟ أو يطرق هواك رقص الراقصات ؟ ، لقد أعجبت بك ، فهل أجد من نفسك لنفسي حاجة ؟ ، فصمت دون أن أجيب فأنا لم أفهم فقالت ، قم و اتبعني ، فوقفت و أمسكت بيدي و كنا نتحسس المخرج في الباب و نحن بسيرنا نكاد نخطو على وجه أحدهم ، فكان المكان حيث خرجنا مطبقا في العتمة فلا ينيره إلا سراج بعيد فنزلت بذلك لمرادها حتى قضينا فعدت إلى مطرحي ولم أدرك من تكون المرأة ولم أدرك اسمها حتى .

ففي الصباح كنت أنظر و أتلمح الإماء الآتي كنا معنا في البيت و التي سيذهبنا معنا كهدية لولية الله ، لكن لم أتيقن من تكون تلك المرأة و خاب أملي حين غادرنا ، فكنت والله أردت شرائها بتلك القطع التي قدمها إلي سوار كعربون أو تكون لي خاصة ، لكن لا أعتقد أنها ستكون كافية ، فكانت تلك المرة أول مرة أشعر بها برقة امرأة و حنانها و أول مرة أشعر فيها بكوني رجلا .

إن السفر لشاق ، حمدا لله انه سخر لنا الدواب لنقرضها بعض مشقاتنا ، فاني و الله كنت رحيما على جوادي ، امتطيه مدة و أترجل منه ليستريح مدة أخرى ، و إن الجلوس على السرج يريح في بداية القعود لكن إن طال فسيصبح الأمر كأنه عذاب ، أما عواصف الصحراء كانت مريرة تمنعنا مرارا ليس عن الرؤية وحسب بل عن مواصلة دربنا ، و حتى لو دخلنا بلادا يانعة خضراء فان تلالها و سفوحها ترهق و تشق علينا كسيارة ، كدت أنا وغيري مرارا أن نتردى من على دوابنا بين تلك الصخور و الأحراش الصعبة ، و إن العبيد لهم قصة ذات شكل و إشكالية مغايرة فلا حاجة لي من وصف المعانات التي يزحفون بين أشواكها فكل وصف لا يفيهم حقهم ، و انه لعار علينا كأحرار أن نقبل بهذه القسمة المجحفة ، لكن هذه هي البلاد و هذه هي الدنيا .

بلغنا مدينة أم القطين ، كانت في السابق قرية صغيرة ، لكنها ازدهرت بسبب سوقها و وقوعها بين طريق الصحراء و طريق دمشق ، فنصبنا الخيام فيها و استرحنا ، فكانت هذه هي الغاية الأولى من توقفنا ، فقد رغب سوار بالبيع والشراء في سوقها ، فنزلنا بها وكنا نبيع ما استطعنا من عبيد و سلاح و نشتري ما سيكون زادا في رحلتنا ، فكانت المدينة مبنية بالطوب والحجر بغير ألوانها الزاهية و أزقتها كانت ضيقة و حالها كحال المدن بين أحضان الصحراء ، فبقينا فيها يومين و أوكلت مهمة البيع و قبض المال لبعض الحرس و بعض من يؤتمن ، فحين كان سوار في خلاف مع احد الشارين من عجلون استل سيفه وقتله ، فكان سوار غاضبا و قرر أن نترك الديار فقد يصل الخبر لقومه و يأتون لقتالنا ، و إننا نحن قافلة متواضعة و لا طاقة لنا بقتال قوم هم أكثر منا ، فنزلنا على أمره وغادرنا .

فحثثنا المسير درأ للقتال ، فلما بلغنا الغوطة صادفنا قافلة أخرى سأل سوار عن قطاع الطرق فقالوا له أن عليه الحذر و أخبره في كلامه أن أهل عجلون قاصدين الصحراء بسيوفهم و قد خرجوا من ديارهم فلم يبقى فيها أحد إلا خرج و لم يبقى سوى من كان عالا ، فلما سئل لماذا كأنه لا يدري ، قالوا له أن أحد أرباب القوافل قتل فردا منهم ، فلم يخبره سوار أن قافلته هي المستهدفة فأكمل طريقه بحذر يتجنب

الطرق التي تسلك عادة ، فلم نستغرب كيف وصل الخبر بهذه السرعة لقومه فهذه الصحراء و كلام القوم يسير سير الريح .

فعجلنا نحو قرية السبع بيار في بادية الشام ، و استغرقنا بالمسير عدة أيام ، فاعتقد سوار أنهم لن يتمكنوا من الوصول أو إدراك غايتنا ، لكن القوم تفرقوا في المدائن و سألوا العابرين حتى لقينا طائفة منهم في العليانية فقتلوا منا وقتلنا منهم حتى انكسروا بمقتل قائدهم على يد ابن دينار و رحلوا ، فلم نتوقف حينها من المسير حتى بلغنا قرية السخنة فاطمأنت قلوبنا .

هذه هي الحياة في الصحراء ، فالفرد للكل والكل للفرد ، لو لم يكن هكذا لما بقي أحد حيا في ربوع الصحراء الجامحة ، الحياة لها دور و ميعاد والموت له كرة .

التقينا في السخنة بقوم يقال عنهم كرد ، لم أسمع قط بلغتهم لكن سمعت عنهم ، لم يتاجر معهم سوى سوار فهو يجيد الفارسية و العربية و التركية و لغة الأرمن و حتى القليل من الهندية ، كان يروي لنا أنه ابن أحد السفراء فكان والده يسفره معه إلى كل بلد أرسله إليه ملك الفرس ، فكان يعيش بين القصور و نعيمها و حرمها .

الكرد قوم أذكياء لاشك أنهم من نسل الجن ، يحبون الخمر والنساء و قليلا ما تجد عبيدا بينهم ، فقد يود الشخص منهم الموت على أن يصبح عبدا ، حقا كانت نساؤهم جميلات ، يلبسن في لبسهن الكثير من الأصفر ، و يكشفن عن مفاتنهن دون أن يعير القوم لهم شأنا ، كم أصبحت أحب النساء ، بعد تلك الجارية التي أخذت بيدي لقد تغيرت ، لكني أشك في أن إحدى الجواري التي أخذنا معنا كهدية لولية الله تكون هي ، خاصة وهي تحدق إلي أشد التحديق ، فكانت هذه الجارية كلما تحضر لنا طعاما تتبسم إلي ، ولما نفرغ تسألني إن أردت المزيد ، و أحيانا تسألني شخصيا إن كنت بحاجة إلى قوت أو مشرب ، كانت لطيفة معي ، ففي إحدى أزقة السخنة تحدثت معها مدة طويلة ، حاولت أن أستذكر صوتها من صوت تلك الجارية التي أخذت بيدي ، لكنني نسيت ، قالت لي أن اسمها درّه ، حقيقة أقول أنها فاتنة و تثيرني ، توطدت علاقتي معها كثيرا بعد أن تحدثنا هناك في أزقة المحال ، أخبرتني أن والدها كان من ديوانية مشايخ معان قرب البتراء ، لكن نصبوا له و شاقوه حتى تخلى عن مكانته ، بسبب كثرة الحساد و الأطماع ، فلم يلبث حتى توفي بمرضه و كمده ، فتبناها عمها فأذاقها الويلات هي و إخوتها ، أما عمها فقد كان عربيدا معاقرا للخمر و مقامرا ، فباعها لتاجر مصري رحال و الذي باعها بدورها إلى مزارع فذاقت الويلات منهما ، لكن سرعان ما باعها المزارع إلى سيد من دير جبل الراهب الذي سلمها بدوره لسوار وهنا تحسنت حالتها .

حقيقة أقول أنني مشفق عليها ، خاصة حينما قالت لي أن عمها كان يجوعها و أرغمها على أن تكون خدما لأبنائه ، و عن ذلك الرحال كيف يهينها و يحملها الأحمال طوال المسير ، أما المزارع فقد تركها في العراء ليومين دون مأكل ، كانت تحفر له السقايات و تجز العشب و تحصد و تطعم الدواب ، لكن مع كل تلك المعانات لا أكاد أجد غلا في صدرها ، كانت تروي قصصها مبتسمة كأنها مرت بتجارب سعيدة ، لكنها امرأة حقا فاتنة ، أعتقد أنها تريد أن تتزوجني .

خشيت أن أسألها إن كانت هي من أخذت بيدي ، لا أريد إحراجها ، أو إذلالها بالسؤال ، فقد بدأ حبي لجنينه يذبل و قد قل تفكيري فيها في عقلي ، و بدأت أريد التودد لدرّه .

البعض منا في السخنة بات تحت الخيام و البعض تحت العراء و البعض و خاصة النسوة بتنا في بيوت أهل المدينة ، لسنا القافلة الوحيدة الزائرة هناك ، أما أنا فقد بتت في أحدى الديار التي ليس لها أبواب ، أفكر في درّه ، و كنت أسمع نباح الكلاب و حوافر الأحصنة المركونة في الخارج ، فلما خرجت قاصدا ، بيتا باتت فيه درّه ، خفت أن تشتكي النسوة و قد أرجم ، فعدت و إذ بها قد خرجت لتوها من باب البيت تناديني خفية ، فقالت ابن الرومية الداري ، ماذا تفعل في جنح الليل ؟ ، فشعرت بالإحراج و الخوف ، فقلت أنني أتمشى وحسب ، و استأذنتها لأغادر فقالت انتظرني سوف آت معك ، فسرت معها ونحن نتحدث فمشينا في تلك الديار الكردية و كنت أرى القوم نيام في الشوارع ، وكانت الكلاب والقطط و الأحصنة في كل مكان ، و كانت المتاجر مغلقة و لا تسمع سوى صوت أنفاس القوم ، أخبرتني أنها سمعت صوت مشيي و أدركت من أكون ، فخرجت لتراني ، و قالت لي ، إن كنت أحبها ، فقلت مترددا أن الحب في ما لا يرضي الله حرام ، فقالت لي أن الله محبة ، لكن الناس تراه كملك مثل ملوكهم ، فيعطون له صفة الغضب و الانتقام ، و إن كانوا يبحثون عن الله حبا و ليس خشية لأحب الفرد منهم من يعاديه و لم يكن ليكون ظلم أو عبودية ، فكنا نتمشى و أخبرتني أن الجو بارد فقد هرولت لما سمعت خطاي فخرجت ناسية لبادة تقيها من البرد ، فأعطيتها كسوتي فتدفأت ، فلما وصلنا للخلاء خارج الحاضرة ، استأذنتني لحاجتها ، فانتظرتها ، فلما عادت قالت لي أن نذهب لنجلس فوق إحدى الربواة ، فكنت قد جاهدت لتسلقها ، أما هي فلم تتعب ، فقالت لي أن نجلس ، فتوجست من العقارب ، فقالت لي أن لا أكون جبانا .

جلسنا هناك تحت نور القمر و النجوم و السحاب المتكون ، كانت ليلة تشع بالنور ، فتسامرنا هناك و ضحكنا لساعات ، فقبلتها ولما سألتها عن مرادي ضحكت و غادرت و حاولت الإمساك بها ، فاستدارت إلي حينما هرولت فقلت لها ، هل أنت هي من أخذ بيدي ؟ ، فقالت نعم ، و قالت لي إن كنت تحبني و تريدني فأعتقني و تزوجني ، وغادرة ضاحكة .

شعرت في تلك الليلة حينما غادرت بالحب الحقيقي ، شعرت حينها كيف يكون الشعور حينما يكون ميزان الحب متكافئ ، صحيح أنني فقير ، صحيح أنني متملق لقوت العيش ، لكنها امرأة طيبة ، و أعتقد أنني أستحقها و تستحقني ، أقسمت لها في ذلك الصباح حيث لم أنم في تلك الليلة أنني سأحررها ، وقالت لي ببسمة بسيطة ، إنشاء الله .

استغربت من إجابتها ، كأنها لا تعي ما أقول ، لكن أعتقد أنها يائسة من حياة الأمة التي تعيشها ، فتذكرت أن ابن نوافا قال لي مرة ، أن الرجل يبحث عن الشهوة و المرأة تبحث أكثر على أن تكون أما و تستقر في آخر عمرها ، فقال لي أن المرأة أعقل و أدهى من الرجل بكثير ، فمع أنها ضعيفة إلا أنها تحول ضعفها إلى قوة ، فهي ذكية قادرة على كبت نفسها ، إذا أرادت شيئا وصلت إليه بكل يسر واتزان خطوات .

صلى القوم الظهر هناك و غادرنا ، لكن كان أحد فرساننا مريضا موعكا في ألمه ، فنقلناه فوق الجمل و أنينه كان مسموعا في مسيرنا ، فكنت في المسير أنظر للخلف لعلي ألحظ درّه .

سرنا بضعة أيام ، فكان صوت أنين الفارس المريض لا يتوقف ، فكان يشكوا من ألم قرب سرته ، ففي عدة مرات ذهب سوار و ابن دينار إليه ليصبره ، و ذهبت إليه عدة مرات ، فكان موغلا في عرقه ، و يرتعش من الحمى ، فكنا لما ننام في الصحراء ، كنا نجعله في أخمص القافلة ، لكي لا يزعج النيام بصوته ، و ترك له سوار حارسا و أمة قربه ، فلما واصلنا السير لأيام ازدادت حالته سوءا و رفض

الأكل والشرب ، فلما ارتجل إليه سوار قال له أننا شرفنا على أعتاب قرية دير الزور الكردية ، و بشره بأن يجلب له طبيبا ، فلما ظهر لنا وادي دير الزور استغرب ابن دينار بأن صوت الفارس و أنينه توقف فذهب إليه بجواده فوجده ميتا .

رحت أنا و درة نسرح في مدائن الدير ، حتى أنها دعتني إلى الوادي و مرحنا و استمتعنا هناك ، زرنا حدائق الفواكه هناك ، أخذنا بعض الرمّان و التفاح ، كانت تلك أكلة طيبة ، كانت تلك أول مرة أتذوق فيها الفاكهة ، و كان طعمها رائعا ، يستذكرني بجنة النعيم ، فكنا نضحك مطولا و كلما همت بقضم تفاحة تنظر إلي بحياء ثم تضحك .

قضينا ذلك الأسبوع حيث كنا في الدير بسعادة مطلقة ، كانت كلما تفرغ من خدمتها تأتي إلي ، فكان القوم قد خيموا في أزقة القرية ، عارضين سلعهم و البعض من ساردي الأحاجي كان يقص سيره على الطرقات للعامة ، فكان القوم يقدمون بعض ما تيسر لهم من مأكل و مشرب ، فكنت في ليالي ذلك الأسبوع رفقة صاحبتي أقص لها ما تيسر في خلجان أفكاري ، فكانت تتعجب من بعضها و تضحك ، و كنت أرى الحزن من بعضها خاصة التي تحمل طابع الحزن ، فكان سوار و خادمه ابن دينار ، يبيتان فوق سرير مرفه في ديوانية مشيخة الدير ، فقد كان قد وطدا علاقتهما بمشايخ القرية ، حتى الحرس قد استراحوا من عبئ السهر في الليل والحراسة و أخذوا الراحة المطلقة في النوم ليلا ، فالبلد آمن و لا يجرأ الصعاليك على مقاتلة قرية بهذا الحجم .

كانت القرية عبارة عن أدير و كل منزل له حديقة ، لتوفر الماء هناك بكثرة تجد القوم يتاجرون أكثر بالفواكه و الأطعمة ، كل منزل له سقايته الخاصة ، و بعض منازل الأثرياء كانت عالية بدورين أو بعضها ثلاثة ، لكن ما لفتني هناك أنني شاهدت عربة خيل ، كانت لرحالة فرنجي ، كان لباسه مغايرا للباسنا و شكله مختلف قليلا عنا ، فقد كان شديد البياض ، مما لفت انتباه الصبية له و لتلك العربة ، جاء ومعه الكثير من الحرس و المؤن و العبيد .

كانت عربتة خشبية مغلقة ، ليست كتلك التي سأراها في بلاد فارس ، فعربات الفرس مفتوحة مسننة ، أما هذه العربة كان في داخلها مقاعد من وبر و صوف ، و كان بإمكان الفرد فيها أخذ الخصوصية ، عرفت من سوار أنه قاصد بلاد فارس مثلنا ، جاء من بلاد بعيدة خلف بلاد التركمان و الصقالبة و تحديدا من بلاد اسمها بلاد الغال ، و قال لي سوار أن هذه العربة دائما تقع في مصائد الطرق ، فكان يجلد العبيد ليسرعوا في إصلاحها ، فقال لي أنها صحيح مريحة لكن لن تمشي في طرقات وعرة و بيئة صعبة .

كان لهذا الرحال شأن كبير ، إذ أن كل الأنظار في المشيخة تحوم حوله ، فقد أكرم شيخ العشائر بالذهب و النفائس و العطور التي قيل أنها أطيب من المسك ، إضافة إلى الحرير و الأقمشة القيمة .

خرجنا من دير الزور في فجر يوم السبت ، و صادفنا بعد يوم قوافل حجاج قادمة من الميادين و القائم متجهة نحو النجف و كربلاء ، فكانوا في طريقهم يلطمون و يستذكون عناء سيد الشهداء ، فكنا قد أخذنا معنا الكثير من المؤن ، لأن الطريق طويلة و صعبة نحو سامراء ، و نصحنا القياد بترشيد استخدام الماء و الغذاء ، فكنا قد أخذنا مواشي لكي نقتات منها في مسيرنا ، فكان سوار و ابن دينار محقين ، فقد كانت الرحلة أصعب الرحل ، فقد مات العديد منا ، من التعب أو العطش ، فلما وصلنا لمشارف سامراء و نهرها هب الكثير منا في جنون نحوه ، مما أمر سوار و صرخ في القوم أن يعودوا للصف ، فقد خاف هجمة من الصعاليك ، لكن حمدا لله أننا سلمنا .

ارتوينا من النهر و ملئنا قربنا و استرحنا في الظلال بين القصب و الشجر ، فلما أمرنا بدخولها وجدنا القوم في يوم فرح ، الأعلام في كل مكان ، والمواشي تساق ، فلما دخلنا قصر الأمير قيل لنا أنه في عرس ، كان الطعام هناك كالهواء ، مما أصبت بالتخمة والإعياء ، و استلقيت في إحدى الأزقة فهرولت إلي درّه مسرعة ، قائلة أنها رأت أمرا عجيبا في القصر ، أنها رأت خشبة تتطق ، لم أحمل عليها ، فقد اعتبرت الأمر جنونا ، و قلت لها أن تدعني أنام فأنا متعب ، فصبت علي الماء فجزعت ، فذهبت لقصر الأمير و هي تجرني من يدي مبتسمة سعيدة ، فلما شاهدت الخشبة ذهلت ، صوت نغمها رائع ، و صوت الدف و المزمار رائع ، و الشعر الذي يغنون به شعر أخاذ يسلب العقول ، فكانت الجواري ترقص شبه عارية ، و المغنون يتناغمون مع صوت العازف و غنائه ، في لحظة زال عني التعب ، فبقيت هناك لساعات و عزيزتي ممسكة بي من شدة اللحظات الآسرة ، فكان الأمير و حاشيته يرمون الذهب و المال للعازف و للفرقة والجواري ، فلما سألت سوارا عنها قال لي أنها عود فارسي ، أردت حقا أن أحصل على واحدة منها ، سأخرج من الفقر إلى آخر أيامي .

خرجنا بعد تعب العازف ولم يكن حديث القوم في المدينة إلا عن تلك الآلة و الأنغام ، يقولون أن الشياطين هي من تعزف و على أنها محرمة ، و أن للعرب مثلها و تساءلوا عن من يملكها .

نظرت لنفسي حينما كنت هناك في المدينة ، و رأيت أنني قد أصبحت بطّانا ، و قد سمنت ، فرحت بنفسي كثيرا ، و فرحت عشيقتي بذلك ، و كنت معها في سمر في عدة ليالي ، أحببتها حقا ، فقبل أسبوع من مغادرتنا ، كنت قرب أحد التجار الذين يبيعون تربة من تربة سيد الشهداء ، فكان القوم محاطين به ، كانت تربة غالية ، فسمعت صوتا ينادي و يقول صارخا ، يا ابن الرومية ، أين أنت ؟ ، أغثني ، فاستغربت و إذ هي درّه ، فانتحبت قربي و قالت أن سيدها يريد بيعها في السوق ، علمت أننا ذبحنا الكثير من المواشي في طريقنا ، و لنكمل السير علينا شراء بعضها ، فخلص سوار إلى بيع بعض العبيد و الإماء ، فكانت عشيقتي من ضمنهم ، فكانت سيدتها و رئيسة الإيماء مهرة تحثها على العودة ، قائلة لها أنه قدرها و لن أفيدها في شيء ، تأسفت عليها ، و قالت أنها أعطتها الفرصة بالبحث عني ، فكانت دموع عشيقتي قد خاضبت ثوبي ، و احترت كيف أفعل ، شعرت بالرعب ، فكنا في ذلك السوق و الناس تشاهدنا ، فجاء سوار غاضبا من درّه و مهرة ، قائلا أن عليهما المجيء ، فذهبت إليه أستعطفه ، فغضب و ضربني ضربة على وجهي فسقطت على إثرها ، ترجوته مشدا على نعليه ، لكنه رفضني ، فلم يعد لي حول ولا قوة و لا حيلة ، فقلت له أن ينتظرني ، فذهبت و اشتريت بكل ما بقي من المال الذي قدم لي أثناء لقائي بالقافلة فاشتريت قليلا من تربة الحسين ، أخذتها بيدي و شددت على لحيته و قلت له ، أنني أترجاه كما فعل موسى لهارون لكن بأقدس تربة لأقدس سيد شباب من في الجنة ، فلاحظت أنه هدأ و قال ، أهذه تربة الحسين سيد الشهداء ؟ ، فقلت أجل ، أتحبها ؟ ، فقلت أجل ، فقال إنها لك ، و أمر مهرة أن تبحث عن غيرها ، فجاءت درّه فعانقتني باكية ، فقالت لي ، اعتقني ، اعتقني ، فقلت لها أنت حرة ، فعقدت عليها عند شيخ في المدينة و تزوجتها ، فلم يكن لدي مهر أو مال ، فكان مهرها آية من القرآن الكريم حفظتها و هي تقول ...و قل رب اغفر وارحم و أنت خير الراحمين ....

انطلقنا بالقافلة نحو بغداد ، و مشينا على ضفاف النهر و المزارع ، كانت الرحلة سهلة إذ أن الماء متوفر بكثرة ، فلما وصلناها ، تفتحت عيني من ذهولي من حجمها ، كانت مدينة ثرية عظيمة ، كانت محال الذهب كمحال القماش ، الديار فيها كانت عامرة ، و كبيرة ، و محال الخمر و الميسر كانت عديدة ، فكان المال الذي عندي قد صرفته ، فأنا بحاجة للمال لأعيل درّه ، فبعد استراحتي أنا و صاحبتي ليوم هناك دخلت أحد ديار الشرب ، قاصدا أن ألقي قصصا و سيرة ، فقبلني صاحب الدار بكل يسر ، فكانت

تلك الدار دارا عظيمة فكانت الجواري يخدمن الحضور و الغلمان ينظفون الأواني و المقاعد ، أما صاحب الدار كان ميسورا و لست سارد القصص الوحيد في داره بل نحن ثلة ، مما لم يسلم البعض منا من الغيرة .

فلما استقررت على عرش بسيط بين الحضور في الدار ، شربت لبنا باردا ، فقبل أن أبدأ جاء إلي محبور و هو أحد ساردي القصص ، فقدم لي قرطاسا و قلما ، فقال لي أنه يجب تدوين القصص لكي لا أنسى ، فكنت قد درست في صغري عدة أحزاب من القرآن و أجدت النطق و التدوين ، فقبلت ، فقلت في الدار ، يا أهل بغداد ، قلبي في شدة و أكد و شداد ، بين عقل قذّ منه الجهل و قلب بالشر غذّ فباتوا في لداد ، رب يفضي رحمة على العباد ، لكنهم لا زالوا لها بصداد ، إن لي قولا سيفرق ، بين قول حق و رأي مرق ، إني و الله لتارك في العالم وحمة ، لشر مستطير فيه و قتر من الرحمة ، حتى يبصر ضرير القلب بقلبه و حتى يقطّع قتاد الصواب جهلا شحمة ، إن في خبر خان أمر فريد ، أنه ملك من أصل مريد ، أبيض بتاج عنيد ، و إني هاذ ما لدي في خبره عتيد ، كان حكيما صلبا بقلب صلد كالحديد ، و بأسه على عداه شديد ، و حبه للهوى و العشق فريد ، يؤتى في اليوم بمائة أمة أو يزيد ، من كل نساء الترك أو الفرنجة و كان عربيد ، لم يكن له في الوغى ند أو في الملك نديد أو وارث أو شهيد ، لكن لم يكرمه رب العزة بولد أو وليد ، فعشق جارية بربرية ، جيء بها من شمال إفريقيا ، فحملت به بتوأمين ، فكانا درّة مملكته ، و قرّة عينه ، فأمرته أن يقتل جميع زوجاته و جميع السبايا ففعل ، فلا تزال تتسلط عليه حتى أشركها في ملكه ، و عظمت يدها الباسطة على المملكة ، فغدرت به في ليلة فقتله و ساد ملكها على البلاد .

فتعجب القوم في الدار ، فقلت ، يا من خطاهم جاءت للدار حثيثة ، إن البرابرة أقوام خبيثة ، ألم يرسل لهم رب العزة نبيا فطبخوه جثة ؟ ، و شربوا مرقته شربة رثيثة ، إن السلطان شيطان ، إن من طمع بكرسي في الدنيا ، عرض عليه كرسي من النار ، و إنها كعظمة الخنزير ، و ليس الوبر كالحرير ، و ليس البصير كالضرير ، و ليس جزاء العبد عند الله كجزاء الأمير ، فاشكروا الله يزدكم ، و عظموا نعمه و لا تجحدوا ، و اذكروه عظيما و رددوا و ذروني في همي أكمل فان قولي عسير .

فلما استكان حكمها ، عاثت البربرية الفساد ، فساد الفاجر على الخلاّق ، و سادت الأمة على الحرة ، و عظم الجاهل و ذل الحكيم ، و فاضت السجون بالعباد ، و كثر في الفلك الأرباب ، و حتى ترحم القوم على أيام المغدور ، و لم يسد قانون سوى قانون الفجور .

فمرت السنين ، فخرجت من بين حضيض المذلة ثورة بجيدة ، و هتك الصمت بصرخة و كسرت أغلال عديدة ، و علم القوم أنهم الناس و علموا أن عظمتهم مجيدة ، فسمع صوت الحديدة ، و دكت حصون عديدة ، تقود الثورة ساحرة عالمة تعاويذها شديدة ، و لها والله ابنة وحيدة ، لو رأيتموها رأيتم أكوانا و فردوسا و حورا متبسمة سعيدة .

عظم التطاحن لسنين ، ما أن تخسر البربرية قلعة حتى تستعيدها ، ما أن تخسر الساحرة حصنا حتى تستعيده ، فتعب القوم من كثرة تراصي المقابر ، و ندرة الأكفان ، و قلة الشباب ، فبعد سنين من الحرب ، كبر الأميران ، و شاخت البربرية و الساحرة ، و لم يكن هناك داع للاقتتال فقرروا الصلح .

لكن للبربرية حيلة أخيرة ، فعند اجتماع الطرفين في القلعة ، غدرت بها و قتلتها ، فمع مرور الأيام كسرت شوكة التمرد ، و خسروا جمعهم ، فلم تمر من بعد مقتلها سنة حتى سقط آخر حصن للمتمردين

، فهبروهم بالسيف هبرا و قتّلوا فيهم قتلة عاد ، و سبوا السبية و قتلوا المقاتلة ، فكان من ضمن السبي ابنة الساحرة .

فجعلتها البربرية خادمة وضيعة في قصرها ، تذلها مذلة الدواب و تشق عليها في الأحمال ، فكبرت هناك تحت رحمة غريمتها ، لكن جمالها أبى إلا أن يأخذ طورا و فصلا آخر ، فقد كانت قرة عين الأميرين و قد سلبت منهما كل بصيرة .

فلما حل الموت بالبربرية أوصت بقتل الأمة ، لكن الأميرين رفضا وصيتها ، فبعد أن هدأت المقتلة بين القوم لسنين ، تلوح في الأفق مقتلة أخرى ، فكل أمير يريد الملك لنفسه ، و كل له حاشيته و مواليه ، فعقدا على أن يكون الأكبر ملكا و الأصغر وزيرا نائبا ، فقبلا ، لكن كل منهما أراد بنت المغدورة لنفسه ، فعظم الخصام و سمع صوت الحديد .

كانت ابنة الساحرة داهية ، ملمة من أمها بعلوم الجن و السحرة ، هكذا يقولون عنها ، إذا كيف استطاعت أن توقع بين الأخوين وقعة ، و كيف حولت نفسها من أمة إلى سيدة .

فبسطت سلطانها على الأخوين و على حاشيتهما ، إن الحب نجم ثاقب ، ما أن يحل بقلب حتى يفترسه كقسورة واثب ، فيدني تائبا كل ما حمل من غل ، و ينوب في حضن المعشوق عبدا نائب ، و إني أراه للحياة لازمة ، لكل نفس آثمة ، فكلا سيكون له ترياق علته ، و كل نفس تسكن في هوجائها جاثمة .

فلما كثر النحيب بين البيض ، رأى القوم أنهم يقتتلون بسبب سبية واهية ، فجمعت بحيلة الأخوين ناصحة خشية ثورة لن ترحم الآن الزرع أو النسل ، فقررت أن يقتتلا في ساحة بين القوم ، و من يسود تكون له حاضنة .

فاقتتلا في موقعة دامية ، فقتل كبيرهم الصغير ، فلما همت بعناق القاتل جاءه سهم في ظهره فسقط هو الثاني ضحية ، فتبسمت ابنة الساحرة و قالت أن الملك اليوم سيكون لها ، فسخط الحضور من الناس ، و سرعان ما أغدقت عليهم بالمال و الذهب ، فأذعنت لها الحاشية و القوم و ساد ملكها .

بعد قولي هاذ كنت لا أرى في الحضور سوى التعجب و الفرح ، و بفرحهم كان سرور صاحب الدار عظيما ، فأكرمني بالمال و أكرمني أحد الأثرياء أيضا بذلك ، تناولت الطعام هناك و الكل كان ينظر إلي متعجبا ، فلما كنت آكل و أسقى بالشراب جاء إلي محبور و كنت ألحظ التملق و الغرور فيه و الغيرة ، لكنني لم أعره شأنا .

تشاورت انأ و صاحبتي على أن نستقر في بغداد و نكمل حياتنا فيها ، فقالت لي أن عهدنا كان لسوار و أن سوار لن يقبل بذلك خاصة وقد أكرمني في بداية الطريق بعربون من مال ، فكرت في الأمر ، و في ذلك الوقت كنت أجتهد في عملي ، و كانت صاحبتي تعمل في مخبز ، فكنا ميسوري الحال ، فاستأجرنا دارا صغيرة ، و قررت أن أخبر سوارا برغبتي في الاستقرار في بغداد ، فهي مدينة رحبة و خيرها وفير .

فلما مر قرابة الشهر من مكوثنا فيها ، جاء إلينا منادي القافلة ، فلما ذهبت لسوار أعطيت له المال ، و قال لي ما هاذ ؟ ، فقلت له أيها السيد و الشيخ الجليل إني وجدت في بغداد حاضنة و وجدتها خصبة يانعة ، فقررت العيش فيها و تكملة ما بقي لي من الحياة بين مشاربها .

في البداية لم يرضى سوار بحجة أن لدي عهدا مع ولية الله ، لكنني أقنعته فقبل ، فلما رحلت القافلة ودعتهم ، فاستقررت بعد مغادرة القوم لثلاثة أيام في بغداد ، وجدت فيها متنفسي ، لكن كثر الحساد فيها ، فبعد رجوعي لمنزلي من عملي حيث تنتظرني صاحبتي ، و في جنح الليل قاطعني محبور في طريقي بخنجر ، فطعنني به لكن احتميت بالقرطاس ، فسقطت على الأرض فلما هم بطعني ضربته بصخرة فسقط أرضا فأدميته .

لم أسمع صوته و هو صريع على الأرض و لا أدري إن مات أم بقي حيا ، ففي تلك الليلة صرخت على زوجتي أن علينا أن نغادر لنلحق بالقافلة ، فقد خشيت أن يكون قد مات وقد قتلته فيقام حد القصاص لي ، و مهما أخبرت القاضي أني قتلته دفاعا فلن يصدقني ، و منذ ذلك اليوم لم يصلني خبره ، إن كان ميتا أم حيا .

أخذت معي كل المال الذي جمعته و غادرنا أنا و صاحبتي بغداد في جنح الليل ، و لم أخبرها السبب ، فكنت أجري بالجواد من الصبح حتى أواخر الليل ، فنهك الجواد فرفسنا ، أخبرتني زوجتي أن ندعه يستريح ، فتركناه ، فكنا في تلك الصحراء وحيدين و تلوح عاصفة في الأفق ورعد .

طال استراحة الجواد فلما قام ، فرحنا له ، فاعتليناه بفرحة ، فكنا معتقدين أنه سيموت و نترك في القفار لوحدنا لنموت ، فسرنا به ، فلقينا قافلة تجار ، سألت عن قافلة سوار فأجابوا أنها سبقتهم ، فلما بلغنا بعد يوم قافلة سوار في مغرب ذلك اليوم ، استغرب عودتنا ، لكنه رفض مجيئنا ، فأكرمته بالمال فقبل ، و أخبرنا أن نترجل عن الجواد فهو منهك ، فترجلنا منه و سقيناه و أطعمناه ، ففي تلك الليلة حيث رفعت الخيام للنوم ، استرحنا أنا و عقيلتي منهكين .

استيقظت تحت صوت النداء لصلاة الفجر ، فكانت كل عظمة مني تئن من الوجع ، لست أنا وحسب بل و خليلتي أيضا ، عدت للنوم مدة ، فأيقظتني ، فكان الجواد قد استعاد بعضا من طاقته فلم أكن قادرا على المشي فاعتليته و سارة القافلة ببطء ، فكنت آخذ غفوة من حين إلى آخر حينما كنت فوقه ، و كانت درّه راكبة على ظهر ناقة لكنها لم تكن متعبة إلى الحد الذي أنا فيه .

في مساء ذلك اليوم التبستني حمى ، كانت شديدة ، حتى ظننت أنه الموت ، كنت أتعرق و أشعر بالبرد و أرتجف ، فكانت درّه تلدني ببعض الماء البارد في قماشة و تمسح جبيني بها ، لقد سهرت معي كثيرا ، استيقظت في الفجر و كان رأس زوجتي فوق صدري ، فقد غلبها النوم و اتكأت علي فكان قد أدرك سوار و ابن دينار مصابي حينها و جاءا إلي قائلين أننا في بداية الطريق نحو أرض فارس ، و علي أن أتحمل .

في مسيرنا حملت على ظهر الناقة ، فكنت أغفوا و أغفوا ، و كان الصرع يشتد علي ، اعتقدت أنه عقاب من الله بقتلي لمحبور ، كل ما أتذكره في ذلك اليوم ، هو صوت أحد الحرس الذين سبقونا و هو يقول إلى السيف إلى السيف ، صعاليك ، كنت صريعا فوق ظهر الناقة و حصل تخبط و بلبلة في الأرجاء ، كنت أسمع طنين السيوف و صراخ الجرحى و كانت أشعر بيد زوجتي تتشبث بي و هي تقول اللهم نجنا ، اللهم نجنا ، فلما سارعت الأحوال نحو الهدوء سمعت ركض الجياد الهاربة ، و أحد الفرسان يقول أن ابن دينار كسر أربعة سيوف اليوم و سوار مثلها ، و كانت تقول درّه الحمد لله ، الحمد لله ، فكنت حين الوقعة أنتظر فقط أي طعنة بخنجر أو أي ضربة برمح أو رمية بسهم ، فتكون عاقبة محبور ، حيث القول يقول ، بشر القاتل بالقتل و لو بعد حين .

لقد عطلنا أولائك الصعاليك ، لكننا واصلنا سيرنا ، فلما وصلت إلى مشارف بلاد الفرس استعدت عافيتي ، و لما دخلت بلاد الفرس رأيت عالما آخر .

بلاد خضراء ، الشجر و الثمار فيها في كل مكان ، بساتين و أغوار ، مجتمع مختلف تماما ، مجتمع يعج بالحياة ، يشترك فيه الفرس و العرب و الهنود و الغجر و التركمان ، في كل حاضنة كنت أرى فيها أوجها مختلفة ، رأيت فيها الفرس أسياد ، و العرب قياد ، و رأيت فنون الغجر و مسارحهم و عروضهم السحرية و الحركية ، رأيت التركمان بألبستهم الزاهية ، و الهنود بمتاجرهم الفاخرة ، نزلنا ضيوفا في كل قرية وارتحلنا ، طعمنا طعامهم و أسدلنا كسائهم و تعلمت القليل من اللغات و الألسن ، فكنت أول مرة أرى فيها البحر و الفلك ، و أتناول السمك ، و أرى حلي ودرر البحر ، لكنني وجدت صعوبة في تعلم السباحة ، أما زوجتي فتجيدها ، و تقول لي دائما أنني جبان .

لما وصنا لبندر ، كانت تلوح لنا و نحن من على طرق في التلال ، إنها حقا أرض مباركة ، و تربة ندية و ولاية إلهية ، بدت السفن الفاخرة و أشرعتها من البعيد ، و ظهرت أعلامها كأنها تؤكد السيادة ، كانت مدينة كبيرة ، و أرضا رحبة ، و كانت شوارعها عامرة ، فلما دخلنا القصر الأميري ، أعلن سوار لكبير الحرس ميسور وصوله من البوابة ، فلما فتحت قدم رسالة ملك جبل دير الراهب و هبانه ، و قص سيرة مساره ، و بدوره أخبر ميسور سيده عاسر فنقل الخبر لولية الله ، فلما دخل سوار وابن دينار على ولية الله ركع و حياها و دعا لها بالعمر و الصحة و أن غرضها قد قضاه لها ، و أخبرها أننا كساردي سيرة نرجو أن نخدم بكل عزة سيدتنا و أننا على مر الطريق نحن ندعو لها بالعافية ، عند كل طعام يحضر أو مشربة ، فدعت علنا بالطمأنة و فك المكربة و أننا في سلطانها في أتم السعد و الحاضنة من الغربة .

فجلسنا هناك في الساحة العظيمة قرب البوابة ، و ارتخينا على الأرض و ارتخت الإبل و عقلت الأفراس ، فجاء الخدم و أمرونا بحمام تركماني ساخن ، فاغتسلنا هناك و ذكورا و إناثا منفصلين ، فلما فرغنا جلبوا الكسوة و النعال و العمائم و الطيب ، فاكتسينا ، ثم جلسنا في الساحة العظيمة مرتاحين فسقينا بالمشارب و طعمنا كسرة ولحما و لبنا و عنبا .

فمرت مدة فجاء كبير الخدم عاسر و معه الخدم و الحرس حاملين مائدة و أقلاما و قرطاس ، فخطب فينا وقال

أيها الجمع الكريم ، بعد فضل من الله و فضل من وليته ، أطال الله بقائها ، ها أنتهم ها هنا بيننا سالمين ، لقد نديناكم فاستجبتم ، و ها أنتم تنادوننا فنستجيب ، لقد كنتم في غيبة و انتظرناكم عدة أشهر متواصلة و أنا هنا لآخذ أكثر من يجيد منكم الخطابة ، و فصاحة و جهبذة ، فادعوا الله أن لا يشق عليكم الألسنة ، و يحل العقد منه ليبين و يسرد لنا خير السيرة ، فلتتقدموا إلي الواحد يليه الأخر لأسمع ما لديه و فليقل خيرا أو ليصمت ، و كلكم أيها الكرام كاسب ، فمن لم يقبل منه أخذ أعطيته .

فتقدم القوم الواحد يليه الآخر و كان الكل يأخذ أعطيته ، حتى ظننا أنه لم يقبل أحد فلما تقدمت قال لي عاسر ، ما اسمك ، فقلت الفيروز ابن الرومية الداري ، فدونه و قال ، قصر القول و حدث خيرا ، فلما سردت أعطاني أعطيتي ، كانت عبارة عن كومة من مال فضي يحمل بعض القطع الذهبية ، فسرد الكل و أخذ أعطيته ، فلما خلص قال أن ننتظره مدة ، فلما قربت صلاة المغرب عاد مجددا و سمى الأسامي و لم أكن من ضمنهم ، فقال

إن من نادينهم سيتبعونني و من لم نناديه فليس له كرة أخرى ، و فليكن له في أرض بندر و الفرس ما يبتغيه الله من فضله .

فكان قد قبل ثلة منا ، أما أنا فخرجت مع الجمع رفقة زوجتي ، فلما فتحت البوابة صادفنا ذلك الرحال بعربته و مع حاشيته و عبيده و هو يهم بالدخول للقصر .

جلست رفقة درّه قرب نافورة في بندر ، فكنا نتساءل كيف سنعيش في أرض عظيمة و نحن لا نجيد اللسان الصحيح فأنا سارد للسيرة فكيف يفهمون عني ، فكنا نبيت الأيام الأولى في خان ، و سرعان ما قالت لي أن هناك سوقا عربية بعد أن جالت في المدينة و سألت و خبرت خباياها ، فمع مرور الوقت كنت أسرد السيرة في السوق و عملت هي في مطعم تملكه هندية و مع مرور الوقت استأجرنا منزلا ، و سرعان ما لاحظت أنها قد سمنت و ربى بطنها و قالت لي أنها لم تحض منذ شهور ، فرحت بالأمر و كنا نعيش حياة يسيرة .

ففي ذلك اليوم و أنا جاثم أسرد في السوق ، وسط جمع من العرب الذين يكرمونني ، قلت

فنزل الكاهن الدرج فرأى معالم و حياة أخرى ، لم يأخذه شجن على قومه أو غصة لحاله فقد كان في نعيم مع جنة ماردة ، و انه لحق اليقين لمن أدرك منكم بالبصيرة و شاء أن يستقيم ، و انه لفتي حليم و إن حظه لو تعلمون لعظيم ، فذهل الحضور وازدادوا تجمعا ، لقد حطه القدر في قرار مكين ، ليس كالسموم و ليس كالحميم ، بل فردوس و جنة نعيم ، فرأى الشجر يبصر و يتكلم ، و حجرا يعدوا و بالشعر يتلعثم ، و جنيات لو أدركتموها فقلبكم لن يسأم ، فسعوا في الطاعات عباد الله و ارتقوا في السلم ، إن تلك الأرض التي هو فيها مبسوطة بفراش و طوبها من فضة و حشيشها ياقوت و إني لا أكاد أصفها و لا أكاد أعلم ، خيم مفروشة كلؤلؤ أو درة ، و لا عبد هناك ولا سيد ولا أمة ولا حرة ، الجميع هناك كأسنان مشط و إنها لحياة ليس لها غصة و ليس فيها صوت أنين ، فسار به كبير الشياطين بقلب واثق و عقل رزين ، بعربة تجول بين المزن و تعبر معبر السنين ، فوصل به إلى قصر عظيم ، تضرب في السماء قبابه و من كل نفيس بني و الله هو العليم ، أيها القوم ، إن الفرس أقوام محبورة بان لهم أرضا خصبة و أحوالا ميسورة ، و إنا نحن العرب أقوام مغدورة ، و إنها لأقدار غير معذورة ، أن يسود علينا شرارنا فنكوى في أرض تنور فننابذ العدل و نقتسم بيننا الجور ، و هم تحت ظلال الكرمة و و الزيتون و التنوب و أحوال ميسورة ، و سلطانهم يقيم العدل و يشفي الصدور المقهورة .

فضربني ذلك اللعين الصغير بحجر فأدماني ، فتأوهت من الألم ، كان ولدا صغيرا و اسمه جندبا ، فتبعته لأريه شري ففر في الأرجاء و أنا خلفه ، فكان يصرخ من الفزعة ، فسمعت صوته أخته الجارية فهي خادمة لولية الله و يقال لها قرّه ، فقالت له

ما بك يا جندب ، ما يغصبك على الجري و الصراخ ، فكان جندب مرتعبا فقال لها و النفس يتقطع منه ، إن هاذ البدو حاسد على أرضنا و يذم سلطاننا و يسفه كهاننا و يتكبر علينا ، فقالت لي ويلك أيها العربي و ما تقول ، ألا تريد أن تحقن دمك ، و تبصر موضع نفسك ، فقلت لها ، أنا سارد للقصص و هاذ الشيطان ضربني بحجر ، فأدماني ، ألا ترين الدم ، فقالت حسن ، لن ينتهي هذا اليوم عليك على خير ، انه لدم بسيط ، و إني لأرجوا أن يضرب عنقك .

فصعقت من الخوف ، وتذكرت محبور ، فلما حاولت أن أهدأها ازداد غضبها ، لما جاء الشرط قالت لهم ما علي فأخذوني غصبا .

كنت في دار الشرط فقال لي كبيرهم و اسمه مفزع ، إذا حسب ما تقوله أيها العربي ، أنك سارد للقصص ، و تقفيت نداء وليتنا و سرت بركبه ، لكن لم تشأ أقدار السماء أن تكون في حاضنتها ، فكفرت بالنعمة التي قدمت لك و أنت ناقم عليها ، فصعقت ، فقلت ، ما كفرت أيها الشيخ الجليل و ما كنت ناقما ، لكنني أسرد و لم أنتبه إلى ما قلته ، فقال ، هاذ يعني أنك تعترف بجرمك ، فقلت ، لا ، لم أجرم ، فقال ، ألا يوجد جرم أكبر من جحد النعمة والكفر بها و تسفيه القوم و أنت غريب بينهم ؟ ، ويلك أيها الرجل ، لقد احترت في أمرك ، فقال غاضبا بعد أن طلب من قرّه الخروج ، أن سلوه السياط و مقامع الحديد ، فصعقت ، فأخذوني فعذبوني و أنا أصرخ .

عذبوني ثلاثا ، حيث تورمت و كسرت بعض أضلاعي ، فكانت درّه تبحث عني فلما سألت الشرط أخبروها عني ، فحين زارتني ، شعرت بالحسرة علي و تألمت من ألمي ، فقالت لي ، ويلك وما فعلت بنفسك ؟، أتريد أن تترك صبيك يتيما ؟، فهدأتها و سردت لها القصة ، فكانت تزورني و تطعمني حيث وجدت صعوبة في إطعام نفسي بسبب كسوري ، أما تلك القصة فأقسمت أن لا أسردها مرة أخرى .

جلست ياقوته على عرشها ، فكانت محاطة بالخدم و الحرس و الجواري ، فدخلت قرّه عليها فسلمت عليها و ردت الولية التحية ، فكانت الطبيبة قرّه تحقد علي ، فقالت لها ، إن لي خبرا قد يسوءك ، قالت ولية الله ، خيرا أعاذنا الله ، و ما تحملين ؟، فقالت قرّه ، انه عن بدوي عربي متكبر ، فقالت ما لنا و مال العرب ، أنزيد هم العرب على هم البيض ، ، و ما ينقمون علينا ؟ ، و ما فعل العربي ؟ ، فقالت ، انه من ساردي للقصص الذين تبعوا نداءك ، انه يذم سلطاننا و يسفه كهاننا و يتكبر علينا ، فقالت ياقوته ، ويله ، أبعد أن شرب مائنا و أكل ملحنا و بات مطرحنا ؟ ، فقالت قرّه ، أجل سيدتي ، انه لئيم و أرجوا أن يكون حكمك فيه حكم العدل ، فقالت ياقوته ، فأين هو الآن ؟ ، فأجابتها ، انه في السجن ، فقالت ياقوته ، انه مطرحه ، فما تريدينني أن أفعل به ؟، فقالت قرّه ، انه السيف يا سيدتي ، فلن يتجرأ أحد على اقتراف فعلته ، فأرسلت ياقوته إلى القاضي أن يحكم علي بالموت .

فكنت في تلك الفترة عاجزا عن النوم من ألمي ، مما دفع السجناء للشكوى لكبير الشرط ، فجاء إلي وقال لي ، ما بك أيها العربي ، ألا ترحنا من همك ؟ ، فقلت ، أنا أتألم أيها الشيخ الجليل ، لا يمكنني أن أتوقف عن الصراخ ، فاحتار كيف سيفعل بي أيقتلني أم يدعني أتألم و أصرخ ، فقرر أن لا يقتلني إلا بإذن من القاضي لأنه سيكون في مشكلة ، فقرر جلب الطبيب ، فقال لي ، سيكلفنا علاجك مالا ، فهل قصرت علينا الطريق و متت ، فقلت إن الأعمار بيد الله .

لما جاء الطبيب و مساعده ، تعجبت أنها لم تكن إلا قرّه و مساعدها هو أخوها جندب ، فقلت لكبير الشرط ، ألم تجد طبيبا غير هذا الطبيب ، فقال ، إن شئت تركناك تموت و قصرت علينا مشقة سل السيف ، فقالت قرّه حينما تفحصتني أنني مصاب بكسور و جروح ، و الكسور إذا لم تعالج فستتحول إلى غرغرينا ، فصعقت من الخوف ، فلما أمرت جندبا بأن يخيط الجرح في رأسي قلت ، هو من تسبب بالجرح فكيف تأمرينه أن يداويه ؟ ، فكنت أصرخ حين أرجعت العظام لمكانها ، ثم خاطت الجروح ، فمنذ ذلك الحين كانت تأتي إلي مرارا لتعالجني .

ففي إحدى المرات حين جاءت إلي ، قالت لي ، ألم تمت بعد أيها البدوي ؟، فقلت لا أيها الطبيب ، فقالت ، إن سيدتي أطال الله في عمرها ، أمرت بموتك ، فقلت حقا ، فقالت نعم ، فقلت ، لما تعالجينني الآن إذا ؟ ، فقالت ، أنا طبيبة و هناك قسم إبيقور على رقبتي ، فقلت و متى سأموت إذا ؟ ، فقالت ، لا أدري ، القضاة مشغولون بالعديد من الأحوال لكن سوف يأتي دورك ، فكان جندب متبسما ساخرا ،

فحاولت الوقوف و هممت بضربه على رأسه ، فقلت له ، أيها الجربوع ، أنت سبب كل المأساة ، فقالت درّه ، ليس هو أيها العربي ، انه أنت ، كان عليك أن تصيغ القول بشكل آخر ، و تحقن بذلك دمك ، فجاء كبير الشرط إلي قائلا ، أراك بحال جيدة ؟ ، فقلت ، كلا ، لا أزال عليلا ، فقال ، بالتأكيد ، سنصرف عليك الكثير من المال في علاجك ، و سنصرف أكثر في إطعامك ، ألا ترى أنك قد سمنت ؟ ، فقلت أجل .

صحيح أنني كنت آكل جيدا ، لكن زوجتي أصبحت تخشى الفاقة ، فعملها في مطعم الهنود لا يجني لها المال الوفير ، و خاصة أنها تمرض من حين إلى آخر بسبب ثقل حملها ، فكانت تشتكي لي ذلك دائما و قالت لي أنني لو متت فستخشى على حريتها و حرية مولودها .

ذات صباح جاءت إلي قرّه لتتفقدني ، فاستيقظت من النوم ، فقالت لي ، تبدوا لي نائما غير مبال بمصيرك ؟ ، قلت ، و الله لا ، إني أخشى أن يتيتم ابني ، فقالت لي ، لديك ابن إذا و كم عمره ؟ ، فقلت ، إن زوجتي حاملة به ، فرأيت منها إشفاقا ، فقالت ، كان عليك أن تتعقل أكثر ، و أنا متأسفة لذلك ، لكن قرار القاضي سيصدر ، فقلت لها ، كيف عرفت وليتنا بالأمر ؟ ، فقالت ، أنا من أخبرتها ، فتنفست محسورا ، فقالت ، ما بك ؟ ، لا أرى فيك أي سخط علي ؟، كأن الموت لا يهمك ؟ ، فقلت ، كلنا سنموت ، لكنني سأموت بسبب لم أقترفه ، فقالت ، أجدك ناكرا لفعلتك ؟، ألست من قال أنك قلت ذلك ، فقلت ، أقسم لك ، لم أقصد أن أسيئ لوليتنا ، فكانت تعالجني و أنا أتألم من الجراح .

فلما غادرت جاء بعض الشرط ، فأخذوا أحد المساجين ، فسألت كبيرهم مفزع إلى أين يأخذوه ؟ ، فقال أنهم سيأخذونه للقاضي ، فقلت و ماذا فعل ؟ ، فقال ، لقد سرق و قتل ، فقلت له ، و متى ستأخذونني ؟ ، متى سأقف عند القاضي ؟ لقد طال الموعد ؟ ، فقال ، ويلك أيها البدوي ، أتستعجل موتك ؟ ، فقلت لا ، لكنني قلق .

فلما مرت أيام أشهر ، كانت درّه في عملها ، فسقطت أرضا وجاءها المخاض ، لم يبلغني الأمر في حينها ، لكن علمت أنها تألمت كثيرا و مرضت ، فجاءوا لها بطبيبة ، لكنها فشلت في علاجها و أوشكت على الموت ، فاستقدموا قرّه لتعالجها ، فتحسنت قليلا أحولها لكنها بقيت سقيمة ، فوضعت بنتا و أسميتها لؤلؤة .

لم يكن لديها المال الكافي لدفع ثمن الطبيبتين فتتطوع قرّه لتعالجها بالمجان ، و كان بينهما صحبة قوية ، فلا تزال بها حتى تحسنت حالتها ، فكانت زوجتي تحضر الصبية لي من وقت لآخر ، ففي إحدى المرات جاءت إلي و التقت بقرّه ، فكنت حينها أوشك على الشفاء لكن كنت أستعين بعكاز ، فسلمت عليها و قالت لي ، هل هي حرمك ؟ ، فقلت أجل ، فمدحتها زوجتي أمامي و قالت أنها حكيمة بارعة و الفضل يعود لها إذ بقيت الآن حية ، فلم نتحمل قرّه التواجد هناك مطولا فغادرت .

في صباح الغد جاءت إلي ، و قالت ، لم أكن أعلم أنها زوجتك ، فقلت ، لو علمت ألن تساعديها ؟ ، فقالت كلا ، سأساعدها ، أنت لا تفهم ، لكن أشفقت عليها كثيرا ، فكانت دائما تحدثني عنك وعلى أنك مظلوم ، و أنها كانت أمة فأعتقتها ، و كانت تشتكي فقرها و مصيرها بعد موتك ، فهل علمت أنني من قادك للسجن ؟ ، فقلت لا ، لكنها سوف تعلم ، فحينما ، نقف أمام القاضي ستدرك ، و لما أنت متوجسة منها ؟ ، فقالت ، لست متوجسة منها ، لكنها صديقتي ، و قد توطدت علاقتنا كثيرا بسبب حالتها ، فقلت ستبوئين بذنبي و ستبوئين بذنب الصبية ، فسكتت و غادرت .

في آخر زيارة لها لي ، قالت لي الطبيبة أنني بخير ، لكن ليس علي حمل غرض ثقيل أو السفر مطولا ، فقلت أنني لن أسافر إلا إلى منصة الجلاد ، فأمرتني بتناول اللبن و الحليب كثيرا ، فكان الحرس يغدقون علي بالأكل ، ففي إحدى المرات ناولني أحد الحراس و اسمه مازن لبنا وقال لي ، اشرب واذكر عطش الحسين ، فقلت سلام الله عليه ، جمعني و إياك معه في جنة عرضها السماوات والأرض ، فشربت فحمدت الله ، وقلت له ، دائما تحقد علي أيها الرجل ، لكنني لم أفعل لك شيئا ؟ ، فقال ، أيها البدوي ، أنا لا أحقد عليك ، و لا أكن لك ضغينة ، لكنني أعمل و عملي يتوجب الغلظة ، والله إني مشفق ليس عليك وحسب بل لزوجتك وابنتك ، و إني أدعوا الله أن يفك كربك .

فلما رحت للقاضي مكبلا كان هناك العديد من الحضور للفرجة و كان هناك العديد من المجرمين و عائلاتهم وعائلات الضحايا ، وكان من ضمن الحضور درّه و الطبيبة و جندب ، فلما استدعيت وبخني القاضي على فعلتي ، فطلبت العفو ، ففي خضم الحديث أدار القاضي حديثه إلى قرّه ، فسحبت شهادتها ، لكن زوجتي صدمت لما علمت أنها السبب في سجني ، فكان القاضي يريد أن يطلب التماسا لولية الله لكن شهد جندب ضدي أمام القاضي و حكم علي القاضي بالموت .

لم يكن ذلك اليوم سعيدا على درّه لكن اصطبرت على الأمر ، فتخاصمت مع قرّه خصاما شديدا ، فلما بلغ الأمر ولية الله استدعتها و قالت لها ، بلغني أنك سحبت شهادتك ضد البدوي الذي أعابنا ، أتشفقين عليه أم لك منه غرض آخر ؟ ، فلم يرق لقرّه القول فقالت ، ليس لي منه غرض يا سيدتي ، لكن البدوي له بنت صغيرة و ضعيفة ، و زوجته كانت أمة فأعتقها بسبب حبه لها ، فأوقفتها فقالت لها ، و الله إني أشك في أمرك ، أتحبين عربيا و هو ناقم علينا و يذمنا في قصصه ؟ ، و ما يدفعك لحب رجل له زوجة و ابنة و محكوم بالموت ؟ ، فأجابتها ، كلا يا سيدتي ، فتلمست الولية وجنة قرّه و خدها وقالت ، قولي صدقا أو اصمتي ؟ ، فقالت لها ، يا مولاتي لقد كنت السبب في مصيره ، لكنني لم أرى منه غصّة أو حقدا أو غلظة ، انه شخص لا تبدوا عليه علامات حبه لنفسه أو تكبره على أحد ، فقالت لها ياقوته ، و ما ستفعلين الآن ؟ ، أتعيدينه للحياة ؟ ، بعد أن يفصل رأسه عن جسده ، أنت طبيبة ، أليس كذلك ؟ ، لو لم تكن معزتي لك كبيرة لكان لي رأي آخر ، هيا غادري ، فانصرفت .

مرت أيام و أنا أزداد قلقا في السجن ، و يزداد فقر عائلتي ، ففي إحدى الأيام زارت قرّه زوجتي و أخبرتها أنها ستحاول التشفع لي ، و أنها متأسفة لما حصل ، و زارتني و التقينا الثلاثة في السجن ، فكانت لا تزال تحاور ولية الله مرارا حتى شكت الولية أكثر أن لها حبا لي ، فقالت لها في إحدى المرات ، إن أمر العربي يشغلك و تريدين أن يشغلني معك ، احترت في أمرك يا امرأة ، ألا تدعينه يموت و نرتاح منه و ترتاحين منه ؟، حسن ، سأرى من هذا البدوي ، فطلبتني لأحضر .

فاقتدت بالسلاسل إليها ، فدخلت القصر و لما صرت عندها كانت قرّه بقربي فقالت لي ياقوته ، أراك سمينا ؟ فأجبتها ، الخفض و الدعه و القيد و الرتعه و قلة التعتعه ، و من يكن ضيف مولاتي يسمن ، فقالت لقرّه ، ها ، انه حبيبك أمامنا ، ذلك الذي تتشفعين له ، فقلت ، إنها ليست حبيبتي ، فقالت ياقوته و هي تنظر لقرّه ، ألم تخبريه ؟ ، فشعرت قرّه بالخجل ، فقالت لي ، ها أنت بيننا أيها العربي ، فما تنقم علينا ؟ ، فقلت ، أنا لم أنقم و الله على وليتي شيئا ، لكنني سارد للسيرة ، فقلت قولا حشوا لم أراعيه شأنه و ها تراني أمامكم ، فقالت ، أنت من الذين تقفوا ندائي ؟ ، قلت أجل ، فما غرضك منا إذا ؟ ، فقلت ، يا مولاتي ، إن لي ابنة و زوجة ، و إني أخشى عليهما لو متت من الرق و الفاقة ، فهل تعفين عما سلف فتكونين قد فزت أجر العفو و أجر اتقاء مصيبة ، فقالت لي ، لن أعفوا عنك حتى تروي لنا قصة ، لأرى إن كنت قد بلغت قولا نجيبا أو تكون للموت فريسة ، فسردت عليها قصتي

فقالت و هي تخاطب عاسرا ، لما لم تقبلوه عندنا في البداية ، فقال لها ، حسبته لا يجيد سردا أو نفعا فهو يكثر الحشو في الكلام ، فقالت لي ، يمكنك البقاء هنا أيها العربي ، فاسرد لنا أو فصلنا رأسك عن جسدك ، فقالت لقرّه ، لقد عفونا على صاحبك ، فماذا ستقولين ؟، فشكرتها قرّه وغادرت خجولة ، فقلت لولية الله أن لي زوجة و ابنة فهل تقبلين أن تمكث معي هنا و نكون عندك خدما وحاشية ، فقبلت بذلك .

استيقظت في غرفتي فوجدت زوجتي قد سبقتني لاستيقاظ فكانت قد ذهبت لتخدم في المطبخ ، فنديت على جندب قائلا ، أيها الشيطان ، أيها الجرذ ، فلم يسمعني و كنت أسمع صوته يلعب بالحصى رفقة أقرانه ، فقلت ، اللعنة عليك أيها الشيطان جندب تعال ، فلما حضر قال لي ، ماذا تريد مني أيها البدوي ؟ ، فقلت له ، أحضر لي عكازتي ، فكانت العكازة جنبي ، فقال ، إنها جنبك أيها العربي ، فقلت ، حسن إذا أحضر الماء لأغتسل ، فلما ذهب ، قلت له عد ، فقلت له و قل لدرّة أن تحضر لي بعض الطعام أو احضره أنت و ساعدني في الاغتسال ، فلما ساعدني جندب في الاغتسال و مسح وجهي ، أحضر اللين و التمر ، فأكلت ، وحمدت الله ، فرحت أجول كعادتي في القصر ، فمررت بالساحة و القباء و وصلت للحديقة ، فكانت عربة الرحّال التي أهداها كهدية لولية الله هناك موجودة ، فذهبت لأدخل داخلها فوجدت درّة و ياقوته فيها ، فقالت لي ولية الله ، لقد سبقناك اليوم أيها العربي ، فقلت أجل ، فدعتني فدخلت ، جلست فوق كرسي من الوبر و مطلي أطرافه بالذهب فقالت لي ياقوته ، هذه صاحبتك ، التي بفضلها بقي رأسك فوق أضلاعك ، ألا تقول لها شيئا ؟ ، فقلت بفضل ولية الله و فضلها أنا مدين ، و ما عساني أقول يا سيدتي ، فقالت لي قرّه ، ألا تزال رجلك تؤلمك ؟ ، فقلت أجل ، كلما حملت عليها أوجعتني ، فقالت لي قرّه ، انه بسبب ثقلك ، فقالت ياقوته ، نادي على الحارس أن يأخذنا في جولة ، فنديته فأخذنا و رحت أجول في القصر معهما ، فقالت لي لا أراكما أيها البدوي ، إلا و إني أرى حبا يتأجج فيكما ، هي خجولة أمامك و أنت متوجس من زوجتك ، فهل تحبها ؟ ، فقلت ، هل تسمح مولاتي بأن أكذب ؟ ، فقالت أجل ، فقلت ، أنا لا أحبها ، فضحكت السيدتان ، فكنا نجول هناك حتى جاء فارس حاملا رسالة لياقوته ، فتركتنا في المزرعة و رحلت و بقيت أنا و قرّة في العربة مدة نتحدث فخرجنا لنرى الزرع ، فكان غضبان و هو خادم في القصر يراقبني من بين الأجمات ، فتوجست منه قرّه و غادرت لشغلها فذهبت إليه و قلت غاضبا منه ، ويلك يا غضبان ما تنقم علي ؟ ، فقال لقد ارتقيت أيها البدوي مرتقا عظيما ، ولا أرى نهاية طماع مثلك إلا في ساحة القصاص ، فضربته بعكازتي فسقط أرضا ، فغضب و لعنني و غادر .

أخبر غضبان زوجتي بذلك ، فلما أدركت أن بيننا ودا وصحبة غضبت و غارت ، فخاصمتني ، فكانت قد أوصت بعض الخدم بمراقبتي ، فقالت لي في ذات مرة ، لو كنت أدرك أنك عربيد و مزواج لما قبلت صحبتك و لقبلت حياة العبودية على حرية معك ، فلم نتوقف عند هذا حتى أنها خاصمت قرّه ، فلما بلغ الأمر ياقوتة سخرت مني ، و قالت لي في إحدى الجلسات ، أنتم العرب قوم تحبون النساء ، أخبرت زوجتي أنني لن أطلقها فأنا أحبها ، فقالت لي ، لو كنت تحبني لما تبعت تلك الفاجرة ، فكانت بينهما غيرة و حسد ، فكانت دائما ما تكيد الواحدة الدواهي للأخرى ، لكن كلما مرضت ابنتي و كانت قرّه تعالجها ، كانتا تتفاهمان عند المصيبة ، فكنت أراهما بصحبة أعظم من صحبة و ود الأخوات ، مما حيرني هذا المشهد و كدت كلما رأيت صحبتهما و صداقتهما أفقد عقلي من التعجب .

فكنت في ذلك القصر أسرد القصص لولية الله فكانت تكرمني بالمال ، و كانت حياتي في القصر ميسورة ، تحت الظلال و النعم و الرفاهية و لا أخرج من القصر ألا قليلا ، و دائما كلما أخرج منه

أتجول في الأسواق ، فكنت أشتري العطور و العمائم و الكسوة و النعال و كنت أزور البحر وأركب السفن .

في إحدى الأيام كنت أنا قرّه تحت ظلال الشجر في القصر مدة طويلة ، فلما علم غضبان بنا استجلب درّه ، فوجدنتي حينما وصلت و أنا أتلمس شعرها و أمسحه ، فجاءت فضربتني و تشاجرت مع قرّه ، فقالت لي ، لم أعرفك على حقيقتك إلا بعد الآن ، في الليل مع زوجتك و في النهار مع عشيقة ، قليل أدب و تربية ، فلما بلغ الأمر الواقعة للولية ، فاستدعتني إلى ظهر سفينة ، فكانتا هناك رفقة الحرس و كبيرهم و الخدم و الحاشية .

فقالت لي ياقوته و هي تمضغ تفاحة خضراء ، أيها العربي ، إن أمرك يحيرني ، تركت سعير الصحراء و عيشة نكراء ، لتجد نفسك بين أحضان الإماء و بلاط الملوك و الأمراء ، لقد جاء بك الحب إلى هنا ، و ها أنت أسير بين مطرقة هذه و أشارت إلى درّه و سندان هذه الجميلة الأخرى و أشارت إلى قرّه ، لقد دخلت أيها العربي بين الظفر و اللحم فهل أرحت القلوب و رويتها فاختر لنفسك واحدة ، فنرتاح من همك ، فقلت ، جلالة الأميرة ، إن خيرك شخص بين عين يمين و عين شمال فماذا ستختارين ؟ ، فتعجبت فقالت ، صحيح ، إذن عليك بالبنتين ، فقالت درّه ، يا مولاتي ، إن تزوجها خلعته ، فقالت ياقوته ، كلا لن أرضى بذلك ، فنظرت إليها قرّه مستشفية ، فقالت لي ياقوته ، ما اسم حبيبتك التي هجرت بسببها ذكرني ؟ ، فقلت جنينه الصارخة بنت غبر ، فقالت لما رفضت صحبتك ؟ ، فقلت ، بسبب الفاقة ، أما الآن فلست آبه بها ، فقالت لي ، ها ، أتراك ؟ ، إن قلبك يتلون و يتلبد كمثل هذا البحر ، أحيان يسكن في سلام و أحنانا يحزن و يعصف ، أيها العربي ، لم تعد في فاقة و أنت بين سلطاننا ، و ماذا تقول في ذلك يا عاسر ؟ ، فقال عاسر ، أجل ، إني أراه يذهب لأسواق و يشتري كل نفيس فيها ، فقلت كرم الله و كرم وليته ، فقالت ولية الله ، لا أريد أن يصلني حديث عنكما بعد هذه الجلسة ، فاحسم رأيك أيها العربي و سدد سهمك و انظر إلى أي عاقبة تريد أن تفضي ، فهل لك أن تتزوجها أو تريحنا من عناء اللغط ، فقلت سأتزوجها ، فغضبت درّه من قولي و هددت قرّه أنها لن ترتاح معي و هي حية فضحكت ولية الله حيث غادرت درّه. .

أقيم العرس في القصر ، فتناطحت نهود و خواصر الجواري بالرقص و صبت المشارب و ذبحت الذبائح ، فباتت درّه ليلتها و كأنها في جنازة ، قالوا لي أنها بكت ، أما غضبان كان له رأي آخر ، فقد دس طعاما فاسدا بين الأطعمة و مرض الكثير ، فشككت ولية الله بدرّه لكنها أنكرت و أقسمت بكتاب الله أنها ليست من أذنب ، لم يمت أحد من المطعمين لكنهم سقموا .

لم تكن حياتي مع القرتين تخلوا من المتاعب ، فكل ما تحل ليلة الواحدة منهن ، تأتي الأخرى لتطرق الباب علينا ، كلما حدثتني الواحدة منهم تأتي بذكر سوء عن الأخرى ، طمعا في أن أكرهها أو أطلقها ، فكانت الواحدة تكذب فتتقول علي بعض الأقاويل التي لم أقلها حتى تشعر نظيرتها بالغيرة ، و تظن أنني أكرهها ، فكنت دائما أنكر ، فكل منهما لها مكانة في قلبي ، فمر الوقت حتى سئمت من المشاكل فاعتزلتهما ، فاشتكين أمري لولية الله .

فجاء عاسر يستدعيني ، فأيقظني من قيلولة ناعمة فذهبت ، فقالت لي ولية الله ، اجلس بالقرب مني أيها العربي ، إن أمرك يضحكني ، فقال عاسر ، أتجلسين مثل هذا البدوي قرب مطرحك انه فعلا تمادى وبلغ مبلغا عظيما ، فقالت له ، لا تهتم له ، انه ضيفي و انه لعزيز علي ، فقالت لي ، أجدك قد اعتزلت من كنت تسميهما قرتين ، هل سئم حبك منهما أم وجدت حبا كما عرفت أن قلبك يتلبد ؟ ، فقلت ، كلا يا

مولاتي ، لم أجد أفضل منهن ، لكن يكثرن علي الشجن و المنن و الحزن ، بمعنى الغضب ، فأنا امرأ أهوى راحة البال ، بعد أن عرفت قحافة الصحراء و حياتها الضراء و مكر أهلها و غلظة عيشها و قلة السراء ، فقررت أن أعود خطوة للخلف فليتهما تفهمان أني بشر فترأفان بحالي و يستكين المسكن ، و تربط النقم فتستوي النفوس إذا حضر الليل و تسلم الأرواح بسلام إلى النوم ، لكن إن شاءت مولاتي اصطبرت عليهما و أعليت الله على همهما ، و أعود لفراشهما ، فضحكت ، فقالت أجل عليك أن تطمع أجر الله فيهما ، و تتصف المحبة و الإخلاص بينهما ، فقررت أن أعود إليهما ، فمرت بضعة أيام بسلام و سرعان ما وجدت نفسي بين امرأتين تودان الاقتتال علي ، فكنت في خفاء خواطري التي لا أريد التفكير فيها ، أن تمرض ابنتي مرضا يسيرا لأرى السلام و المحبة قد سكنت دارنا .

لما بلغ لغضبان أنني جلست قرب العرش أمام ولية الله ، ازدادا حسدا و قرر أن يبلغ الأمير يزدجرت بذلك ، لكن دائما كان يطرد من بوابة القصر ، فلم يجد حينها سبيلا و لم يقدر على شفاء صدره ، و هاذ ما جعله يحقد علي أكثر .

مرّ وقت و كبرت قليلا بنتي و بدأت تأكل الطعام و سرعان ما ربى بطن قرّه و حملت ، فجلست في رفقة جندب و عائلتي بحضور الطعام من أرز و لحم خروف و خضر فكان جندب يتلمس أفضل اللحم له ، فضربته و قلت له أن يترك شيئا للؤلؤة ، فقالت لي درّه أن أتركه و شأنه ، فسمعت جلبة في خارج البيوت ، و إذ هم حرس ، فقلت لجندب أن يذهب ليرى من هناك ، فرفض ، فضربته ، فقال لي أن أدعه يأكل ، فذهبت قرّه لترى ، فعادت و قالت لنا أنها ياقوته ، فتوقفنا عن الأكل ، فكانت ياقوته تتفقد أحوال بيوت الخدم فدخلت علينا ، فوقنا فقالت لنا أن نجلس ، فجلسنا مطرحنا ، فقالت ، أرى خيرا كثيرا هنا ، فقلت ، بفضل الله و بفضل وليته ، فقبلت ابنتي و جلست قربنا ، فتعجبنا ، فأطعمت لؤلؤة و قالت لنا أن نواصل الأكل ، فأكلنا ، فحدثتنا عن أحوالنا ، فحمدنا الله ، فأكلت بعض الأكل فقلت لجندب أن يحضر الماء ، فالشيطان خاف و لما نهض أصاب برجله القصعة ، فنظرت إليه نظرة غضب فزاد خوفه ، فقالت ياقوته ، لا عليكم ، فأكلت و شربت ، فلما غادرت اصطحبناها للباب ، فلما أمنت منها ،

استدرت نحو جندب فضربته ضربة بعكازتي إلى رأسه وقلت له أنه حيوان ، فآلمته الضربة و خاف و بكى ، فترجتني القرتين أن أعفوا عنه ، فخليت أمره .

استدعيت بعد أيام لولية الله ، فعرفت أنها طلبتني إلى بيتها ، فدخلت أول مرة في جهة ذلك القصر ، فكان يعج بالحرس ، فرافقني عاسر حتى الباب ، استأذنت و دخلت ، فلما دخلت وجدتها جالسة قرب طاولة ، فكنت أحدثها ، فكانت تتزين ، فقالت لي ، ما رأيك بي ؟ ، فقلت في أي أمر ، فقالت في جمالي ؟ ، هل أنا أجمل من القرتين ؟ ، فكانت بالفعل امرأة فاتنة فقلت بالتأكيد ، فقالت اقترب ، فاقتربت و إذ أني أرى رجلا ، يتحرك كما أتحرك ، فقلت ، ما هذا ؟ ، فقالت إنها مرآة ، فطفقت متعجبا منها ، فقالت لي ، اخرج .

لم أرى قط نفسي في مرآة ، فكنت شخصا وسيما ، فلما التقيتها في الغد في الساحة قالت لي ، ها أنت ذا ، أعجبت بجمالك و لم تعجب بجمالي ؟ ، فقلت ، العفو يا سيدتي ، أنا لم أعجب بنفسي أكثر منك ، لكن تلك أول مرة أشاهد فيها شيئا عجيبا كذلك ، و الله انك جميلة ، لكن ما رأيته كان العجب ، و لم أسمع أو أرى مثيله من قبل ، فقالت لي عليك أن تحضر الليلة لتسرد لنا ، فاستجبت لطلبها .

فأقسمت إلا على أن أجلب واحدة مثلها ، فذهبت للسوق و سألت فلما وجدت من يبيعها ، وجدتها مرآة صغيرة و ثمنها غالي ، فهي بقطعتين من الذهب ، فاشتريتها ، فرحت ألهوا بها حتى شاهدتني القرتين

فانتزعتهما مني ، فطلبن لي أن أشتري اثنتين واحدة لقرّه و واحدة لدرّه ، لكنني رفضت لأنها غالية ، فقلت أن نتناوبا عليها ، لكن سرعان ما لعبت بها ابنتي وكسرتها ، فتحسرت و أقسمت على أن لا أجلب أخرى .

لما بلغ غضبان أنني بلغت مطرح ولية الله ، اشتد حقده ، فذهب لقصر الأمير يزدجرت و أقسم أن يدخل ، فكاد الحرس يقتلونه ، لكنه وصل لمجلس الأمير و قصّ عليه ، فأمر الأمير بخادم يذهب من قصره لقصر الولية فيتجسس علي و يرى أمري ، و أمر لغضبان بالمال و أمره أن يدل الجاسوس علي.

جلست ذات مغرب في مجلس ولية الله فأمرتني أن أسرد ، فشربت لبنا و ارتويت وحمدت الله وقلت يا غائبا فانتك فائدة و يا حاضرا كسبت قصائد ، إني لولية الله محابذا و إني لعدوها منابذا ، إن قولي يشتد مجابذا و انه ليشق على كل الجهابذا ، فرأيت من ولية الله سرورا وقلت ، و إن سرور وليتي لكلمي روافذا ، و لست معيرا هما حاسدا و لست أعير شأنا قنافذا ، فضحكت ولية الله و ازداد الحضور من الساردين حسدا ، فقالت لي ضاحكة ، لقد أضحكتني أيها البدوي ، واصل طيبك الله ، فقلت ، إن لي قولا قطف من جنان و طيب شذا ، و نقح نقح سيف و قذت منه الشواذر قذا ، فلا أزال أسمعه فذا ، لكل عقل رزين سيكون له جذا و كل طيب سيكون له رفيقا حذا ، فاسمعوا و إني قارئ من كتابي ذا .

يا صائما إن لك موائدا و عيدا و فوائدا ، و يا قائما إن لك في جنان الله ودا ، و يا كريما ا إن لك من يد الله مدا و عوائدا ، و يا قلبا إن عليك يوما قلبا قسورة صائدا ، و يا حياة بين براثن عشق إن القرتين لا زالتا بي بمصائد و مكائدا ، فضحكت ولية الله ضحكة صريرة ، فضحك الكل و منهم القرتين ، فقالت لي ولية الله ، ألهذا المبلغ بلغ همك ؟ ، و الله لا أرى إلا أن تطلقهن أيها العربي ، إن طلقتهن زوجتك غيرهن ، فقلت ، إن العشق عسل مر ، و إن مصيبتي فيهن لها حلاوة ، و إني لا أرى إلا أن أزيد الثالثة ، فقالت لي ولية الله ، ويلك أيها العربي ، ألم تقدر على الاثنتين فتزيد الثالثة ؟ ، فقلت ، لا حل لمشكلة إلا بمشكلة أعظم منها ، فضحكت ولية الله ، فقلت ، هكذا أرى، أطال الله عمرك ، فقالت لي أكمل أيها البدوي ، فقلت ، إن في خبر قرنفله أمر يسير ، كل من نظر إليها بطرف يولي بصره عنها و هو حسير ، ليست بجمال أو ملك وليس في حياتها أمير ، لكن صوتها يسبح في النفوس و يصدح في الأثير ، فطال همها في الوحدة و غاب السرور عنها و غاب في لياليها قمر منير ، لو رأيتها أشفقت عليها من ما هي عليه بين النسوة و مظالمهن و لو ترين لرأيت الكثير ، ملبسها كسوة رذيلة و لم تلمس في حياتها الحرير ، مات والدها و هي فتية و لا ترى معيلا غيره و لا ترى في حياتها إنسا و نسجت أيامها نسجا مرير ، طال عليها الليل و طالت عليها عدة الصيام ، فأين هي والأنام و أين حظها الذي هام ؟ ، و إني لأرى لها الرؤى و إني لأراها في الأحلام ، أتلوم نفسها ضيما فمن يحق له أن يلام ؟ ، فنادي يا أمة الله بالعدل يقام ، إن الكبير الله الدوّام ، السيف على البطر الهدّام ، من عدن إلى البحرين إلى بصرى الشّام ، مرورا بقيعان مصر إلى المغرب الريّام ، فوقفت ولية الله و صرخت في وجهي قائلة ، أكمل أيها العربي ، فقلت ، فهربت بهمها للغابات لتنشد الأنغام ، فسمع صوتها المسوم كل حيوان ، فنادوا على الجنة لتضام ، فاجتمع أمامها جمع غفير ، فتقدمت إليها جنية اسمها فليفله ، فتعجبت قرنفله ، فذكروها أنهم كانوا معها في كل مأساتها لكن على عينها غشاوة كأنها كالضرير ، فبنو لها بيتا من زخرف و موائد و طعاما و قوارير ، من ذهب و فظة و زمرد و كسوة من حرير ، فقرت عينها و سبّحت بحمد الكبير ، فقالوا لها إنا سنلقي حبا عظيما في قلب الأمير ، و سندفع عنك كل خبيث و شرير ، فبيتي ليلتك هنا و غدا انطلقي في المسير ، و اذهبي بهذا الجواد ذو الأجنحة إلى طليطلة إن هناك حشدا كثير ، و

انشدي هناك الأنغام بصوت صرير ، فاستوقفتني ولية الله وقالت ، أيها البدوي لم أكن أعلم أن للأحصنة أجنحة ؟ ، هذا أمر عجيب ، فقلت ، فباتت ليلتها على فراش من حرير و تربث عليها الجنة و تروح عليها بأجنحتها الطير ، فقبالة الفجر أيقظها حسون بالصفير ، فرتبتها و هندمتها الجنة و نظرت لنفسها للمرآة فرأت جمالا عظيم ، فطارت بالحصان بين المزن و السديم ، حتى وصلت المدينة و ساحة المدعوين ، فأنشدت كل امرأة و بالكاد هن ذوات حظ عظيم ، إلا واحدة منهن و اسمها مدللة ، و هي ابنة ثري و مربية أفاعي و ثعابين ، عالمة بالسموم و ذات كجمال فريد ، لكن قرنفله غلبتها في اللحن و النشيد ، فدفعت مدللة المال للسادة فكانت أول الفائزين ، فغضبت فليفله للوقعة و مسحت اسمها و كتبت دونه قرنفله ، فاحتار السادة في الأمر ، فكلما مسح اسم قرنفله و كتب مدللة بدله عاد ليكتب من جديد ، فتخبط السادة و فازت الغريمتين بدعوة إلى قصر الأمير .

فدخلتا مجلس الأمير ، فكان بهوا عظيما فرقص الكل ترقبا لحضوه ، و لو رأيت نظرات الحسد من مدللة كانت تخبر عن شر غليظ ، فلما حضر الأمير جلس الحضور للسمع ، فنشدت مدللة و إذ بإعجاب القوم لها يفوق كل الوصف ، و صفقوا لها إذ رؤى القوم تصفيق الأمير ، فلما أنشدت قرنفلة أمرت مدللة أعفى بأن تذهب لأخمص غريمتها ، فكانت تنشد و تنشد و فاق صوتها صوت حور العين ، فرأت أفعى قربها فصرخت ، فشعرت بالإحراج لضحك القوم عليها فبكت و غادرت بهو الأمير .

ضحكت مدللة للوقعة ، و شمتت بها و قبلت تلك الأفعى ، لكن صوت النشيد يصدح في قلب الأمير ، فعادت أدراجها لقصر الزخرف و خاب ظنها في نفسها ، فكان كل حيوان يصبرها و كل جني كان يواسيها حتى مطلع ذلك الفجر ، فغادرت قصر الزخرف و خاب ظنها في كل جني و خاب ظنها في فليفله .

فلم يبت الأمير ليلته و كيف سيبيت و هو يتذكر ذلك الصوت الناعم و النشيد العليل ، فأمر بها في مجلسه ، فلما بحث الجند في كل قرية في طليطلة وجدوها غير بعيد في مزرعة فأمروا بها فحضرت ، فلما دخلت مجلسه نحبت باكية ، فأمر بها الأمير بزينة و أمر أن يكون مكانها في مجلسه دائم ، فكانت تنشد و تتفوق على غريمتها .

فقالت لي ياقوته ، لم تحسن اليوم السرد أيها البدوي ، لكن كان يجب أن يحصل ذلك ، فقالت أكمل ، فقلت متحسرا من كلامها ، هاذ ما لدي اليوم عتيد ، فأمرت القهرمان فأغدق علي بالمال ، و قالت لي ، إن لم تحظى قرنفله بحب الأمير أمرت القاضي أن يطلقك من القرتين .

فكنت مع ولية الله أحذوها لأوقات متعددة ، حتى شكك القوم بنا ، فعادة ما تستدعيني إلى غرفتها ، فكنت أسرد لها و كنت ألهوا بالمرآة ، فكانت ذات يوم تمشط شعري و تعطرني بالطيب ، حتى شككت في أمرها ، إذ قالت لي ذات مرة أن أطلق القرتين ، لكنني رفضت ، فغضبت فقالت لي ، أتعصي أمرا أمرتك به ؟ ، فقلت كلا ، يا سيدتي ، لكن إني منهن أبناء ، و أخشى عليهم ، و قلت ، و ما الفائدة في أن أطلقهن ؟ ، هل ستزوجنني غيرهن ؟ ، فقالت لي ، أنت ساذج ، فلم أفهم شيئا ، فلم تمر مدة طويلة حتى وضعت قرّه ابنة و سميتها كهرمانه ، فباركت علي ولية الله ، فكنت معها في صحبة حتى جاء ذلك اليوم .

إذ أقام الملك كيشار حفلا في كل البلد إذ فاز بمعركة ضد البيض الهياطلة ، فكسب بذلك خضوعهم لدفع المال ، فجاءت إلى قصر ولية الله مغنية و اسمها طرّه ، أعجبت بها من جمالها و صوتها و عودها و إنشادها ، فأغدقت عليها بالمال ، فلما استراحت و لاقيتها وحدها ، تفضلت عليها بالمال الذي قدمته ،

فقالت لي ساخطة ، فضل الله ولا فضلك ، فكانت تكرهني و أنا أحببتها ، فلما سكنت في القصر كنت أتودد لها طامعا في حبها لكنها كانت ترفض ، فلما علمت قرّة بذلك قالت لي ، لو علمت أنك عربيد و مزواج لتركت رأسك ينفصل عن جسدك ، فشمتت بها درّه قائلة ، قلت لك أن لا تأمنيه كما فعلتها بي ، فعلها الله بك .

فكانت القرتين دائما ما تحدثاني عنها ، قصد إثارة غضبي و حنقي ، لكنني لم أكن أبالي ، فكنت طيلة الوقت أنام أو أكتب القصص ، فلما علمت ياقوته بحبي لطرّه لم تعد تستدعيني لغرفتها أو لسرد القصص في مجلسها ، فشكوت أمري لعاسر لها ، فلم تقبل أن أحضر لمجلسها ، لكن في تلك الليلة أرسلت إلي خادمة إلى غرفتها ، فرحت لها فلم أجد في حينها الحرس الكثير ، فوجدها جالسة قرب المرآة متبرجة ، فأمرتني بالجلوس قربها و مشطت شعري ، فقالت لي ، ليس في شعرك قمل أيها العربي ، فقلت أنه كان لدي قمل في صغري لكن حلقت شعري كلها و جلب لي خالي رحمه الله قطرانا ، فقالت لي أن أحدثها عن عائلتي ، فقلت إن أبي و أمي ماتا في صغري بالجذري و تكفل بي خالي ، فكان تاجرا يسفرني في حله و ارتحاله لكنه مات في مقتلة بين قريتنا و قرية مجاورة بسبب حوش من النخل ، فقالت لي و هي تتلمس ذقني أنني وسيم ، فكنت أحدثها ليتها حتى قبلتني و استيقظت في الصباح و أنا على فراشها .

علمت القرتين أني بتت بصحبتها ، فأفشتا السر حقدا و غيرة ، و حصلت بلبلة بين القوم ، و ساد لغط ، فجاءت إليهما ياقوته فوبختهما ، فكانت القرتين محتارتين ، أيواجهنا طرّه أم ياقوته ، فان كان من الممكن مواجهة طرّه فلا قبل لهن بياقوته ، فلما بلغ الكلام الأمير يزدجرت أمر الجاسوس بقتلي ، فكنت حيثما أسير ، كانت ترافقني النظرات ، همسات القوم و عتابهم لي لا يتوقف ، لكنني أدرك أنهم يغارون مني ، أما غضبان فقد تشاجرت معه إذ لعنني ، فلم تتوقف ولية الله على مصاحبتي ، فكانت حينما تراني رفقة طرّه أتحدث ، كانت لا تتقبل الأمر ، فوجدتني في إحدى المرات رفقتها و هي تعزف بالعود فقالت ، أرى أنكما قد تصالحتما ، فقالت لها طرّه أنها لم تتصالح معي لكنني أغدقت عليها بالمال كي تغني لي ، فقالت لها بأنها لن تقبل رجلا زر نساء و مزواج ، فقالت لها ياقوته ، هل هذا رأيك أم يمكن أن تغيريه ؟ ، فقالت طرّه ، نعم ، هذا رأيي فيه ولن أغيره ، فشككت ياقوته من قولها فقالت لي ، أيها العربي ، أنت كذئب قرر الصوم ، فان حل له طعام أكل وان لم يحل له أكل ، فخفت من قولها ، فقالت لي ، لا تختبر صبري أيها العربي ، إن كان لي ود لك اليوم ، فربما غدا ، لا أدري ، فغادرت طرّه و غادرت ياقوته .

فكنت في مجلس ولية الله أسرد ، فقلت ، يا غاويا في دنيا الفتن ، إن القلوب طيور على أغصان الشجن ، لقد استرقت القلوب قلوبا كما عبد من دون الله كل وثن ، فمن لي للبرية جامعا بعقل حسن ، و من لي لهذه القلوب الحية بكفن ، فقالت لي ولية الله ، باشر في الموضوع أيها العربي ، قل لنا ما أمر قرنفله ، فتوجست فقلت ، كل يوم يزداد حقد مدللة ، حتى بلغ ذروته و قررت قتلها ، فأمرت أفعى أن تذهب الى مضجعها ، فلما ذهب لدغتها ، فبقيت قرنفله ساكنة صريعة عليلة تبكي عليها الجنة و الدواب ، فاحتاروا في علاجها ، حتى بلغ الأمير مرضها ، فقالت لي ياقوته غاضبة ، أيها العربي إن ماتت قتلتك ، فتوقفت متوجسا منها فقالت لي ، ألا ترى أن قصتك هذه تشبه شبها قليلا قصة حصلت ؟ ، فقلت مترددا ، لم أكن أقصد ، فقالت لي ، لا عليك ، واصل ، فترددت فقلت ، أتسمح لي سيدتي وتعفوا عني هذه المرة ، فأنا لست في حالة تسمح لي بالسرد ، فرأيت منها عدم تقبل فقالت لي ، حسن ، لك ذلك لكن لن تأخذ شيئا من أعطياتنا اليوم أيها العربي ، فحل محلي سارد آخر فغادرت و العرق و القلق باد علي ، ففي

تلك الأزقة و الدهاليز من القصر حينما مشيت غافلا ، طعنني الجاسوس بخنجر على ظهري و سقطت فلا أذكر شيئا بعدها .

قالت لي قرّه أنه قد مرت عدة أيام على مصابي ، فكنت أعي قليلا ثم أغشى صريعا ، زارني عاسر بعض مرات وزارني كبير الشرط و بعض معارفي ، لكن لم تأتي طرّه و لا ياقوته إلي ، فكنت في سريري منهكا ، فقالت لي درّه مرة ، ذكرت اسمها كثيرا ، أخال قلبك أيها الرجل مريضا ، ألا تتقي ربك و ترى في أمر أهلك و تحقن عرضك ؟ ، فقلت ، من هذه التي ذكرت اسمها مرارا ، فلم تجب علي .

مرت مدة أيام حتى تمكنت من استعادة بعض من عافيتي ، ففي ليلة سمعت الطرب و الغناء من جهة القصر ، فكانت قد أقامت ولية الله حفلا ، فكانت تغني فيه طرّه ، فذهبت القرتين للحفل و تركت لوحدي ، فكنت أسمع الرقص و الزغاريد و أتألم في ألمي .

فلما علم يزدجرت أني لم أمت بل استعدت عافيتي ، أرسل للجاسوس فحضر إليه ، غضب منه فأمر بقطع رأسه لفشله في قتلي ، فجاء في صباح الغد إلى قصر ولية الله ، فلما رأته في الساحة قادما نحوها قالت له ، لو قلت لي يا أخي أنك قادم لحضرت نفسي و استقبلتك ، فلما وصل إليها صفعها ، فنظر إليها بغضب وقال ، أين ذلك العربي ؟ .

فلما وصل إلي سل سيفه لضربي فمنعته ، فأمر بي أن أخرج من القصر و لن أعود ، فجهز لي في لحظتها دواب فغادرت و أنا لا أزال جريحا ، فرحت أنا و أهلي عائدين نحو الدار ، فلما كدنا نخرج من بلاد الفرس نحو بلاد العرب ، توجسنا من قطاع الطرق ، فلم تمر بضع أيام حتى جاء ركب من الفرسان يحملون مالا ومؤنا أمرت بهم ياقوته لي ، و كان من ضمنهم طرّه ، فلما قالت لي أن ولية الله أهدتها لي ، قلت لها أنت حرة فاذهبي ، فذهبت ورجعت أدراجها و واصلنا المسير ، فقالت لي درّه ، لا أراك مهتما بها الآن ؟ ، رغم أن لسانك لم يتوقف عن ذكر اسمها ، فنظرت إليها بغير رضا ، فقالت لي ، أنتم الرجال من الصعب أن نفهم ما يجول في قلوبكم ، لقد تركت اللبوة و سعيت خلف كلبة ، لهذا السبب سخطت منك سيدتك .

دافع عنا الحرس في الطريق فلما وصلنا للدار بعد أشهر كنت قد شفيت ، فقابلت صديقي الوردي و رحب بي و أخذني بالأحضان و قال لي أنه سيتزوج اليوم ، فقال أنني من المدعوين ، فقلت ، بمن ستتزوج ؟ ، فقال ، أحزر ؟ ، فقلت ، علجة ، فقال ، أجل ، كنت أسرح معه طيلة الوقت فلما التقيت بقاطع تعجب من أمري ، و قال ، ألم أنصحك بالذهاب ؟ ، فشكرته على نصيحته ، فكنا هناك ليلة العرس ، لكن حين نام الجميع ، تسلل جريب العاق إلى بيت الوردي فطعنه طعنات كثيرة فمات ، استيقظ الحضور على صرخات زوجته التي كانت جنونية .

كانت وفاة الوردي صدمة لي ، كيف لا و هو أقرب أصدقائي ، فقد كنا كذلك منذ الطفولة ، أما زوجته التي لم تشبع منه ، فقد فقدت صوابها و لم تمر مدة و نحن نراها تمشي كالمجنونة في الشارع حتى تدلت من على جبل وماتت ، أما جريب فقد قتل قصاصا و كانت حالة أمه من الحزن لا تطاق .

مر وقت و كنت في حال ميسورة ، فقد اشتريت منزلا واسعا من المال الذي قدمته ولية الله لي ، و تاجرت بالقماش في دكان رفقة درّه ، أما قرّه فقد عملت طبيبة ، كنا في حال جيدة و لم أفكر بجنينه إلا بعد أن التقيت بها في سوق قرية الغرب ، فقالت لي أنها مطلقة ، فلاحظت منها أنها تريد مصاحبتي ،

لكنني أخبرتها أنني لن أزيد زوجة ثالثة ، فذهبت و لم أتحدث معها من بعد ذلك و كلما سارت في طريق سلكها بي كنت أتحاشاها .

في الذكرى الثالثة لوفاة صديقي ، عدت من قبره و قبر زوجته ، و كان قد ولد لي صبي من درّه و أسميته الوردي ، فعدت و أنا مهموم ، فلما وصلت قرب للدار ، لا أدري ما قالته لي درّه التي كانت في الدكان ، فغفوت مدة فجاء إلي جندب طارقا الباب ، فقال لي أن ابن عمير و قاطعا يريداننني ، فلما ذهبت ، شكرني ابن عمير و مدحني بأنني دفعت ثمن الجواد ، فقال لي ، لو لم تكن من أفضل الناس ما طلب منك قاطع هذا الطلب ، فقلت ماذا يريد ؟ ، فقال قاطع لي ، أنه زار الشام و رأى فيها مستقرا و أرضا مباركة ، فهو يريد السفر و الاستقرار هناك ، فطلب مني أن أساعده بالمال ليبني تجارة ، فهو سيسافر بعد شهر ، فقلت أنه ليس عليه أن يطلب مني بهذه الطريقة ، فأنا أقدر صنيعه بنصحي بالسفر لولية الله ، فساعدته ، فقبل أن يذهب زرنا أنا وقاطع و ابني قبر الوردي وزوجته ، فأرقت عليه الماء و حزنت هناك .

فبعد أيام سافر قاطع نحو الشام ، و كل ما وصلني عنه بعد سنين أنه استقر و مات و دفن هناك بقرية اسمها داريا .

.....انتهى .....